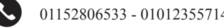
أجنحةٌ من رماد

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: أجنحةٌ من رماد
التأليف: صفاء الفقي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 168 صفحة
عدد الملازم: 10.5 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/20527
الترقيم الدولي: 978-977-278-762-3





elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



أجنحةٌ من رماد

تأليف

صفاء الفقي



الإهْداء

إلى كلّ أولئك الذين نثروا في ربيع العمر حبًّا، ولم ينتظروا حصادَ ما غرسوه فينا..

إلى صاحبِ كلّ قلمٍ حرّ...

إلى الأنقياء أبدًا...

مودّةً وعرفانًا..

أهدي هذا العمل.

صفاء الفقي

شخصيّات الرّواية

عائلة السيد خوسيه

خوسيه: الأب

السّيدة ماري: زوجة خوسيه

إيزابيلا: ابنة خوسيه

فابيان: ابن خوسيه

ماريو: شقيق خوسيه

عائلة قائد الشّرطة لوبيل

لوبيل: قائد الشّرطة

فيولا: ابنة قائد الشّرطة

القسّ جاك: صديق ماريو

دانييل: طبيب إيزابيلا

الرّاهبة مارجريت

راشيل: الخادمة

شخصيّات من الأرض المحرّمة

برقان: حارس التابوت

سكّان أرض الجبابرة

عجوز الجنّ

حكيم الجنّ

الناعق العملاق

مسوخ الخدم

مقدّمة

سيظلّ الأمل يخفق بجناحين من الضّياء مرتفعًا، ويرفرف عاليًا يمحو ظلمةَ النّفوس الشّريرة، ويزيل عتمة الشّح والأنانية، ويقاوم الفِطَر المنتكسة، وما ذاك إلّا لرسوخه وثباتِه؛ حيث تأبى الحقيقةُ إلّا أن يكون لها وجهٌ واحد، فهي لا تجيد ارتداءَ الأقنعة، ولا تحسن التلوّن بألوان متعدّدة.

في هذه الرّواية- أجنحة من رماد- ستقفُ على مزيج من الواقع والخيال، وستبصر خليطًا ممتعًا من القيم الإنسانية العليا لما تحمله من رسائلٍ هادفة، وخصالٍ راشدة، ففيها من الخيال ما يفتح النّوافذ المغلقة داخلَ النّفس الإنسانية، ويلجُ بها أغوار العوالم الأخرى لتحياه وتطّلع على جوانبه الغامضة، وبها من العواطفِ ما يحاكي ضوءَ اليقين ويلمسُ شغاف القلب، ويستوطنه.

(١)

البيتُ الكبير

كادتِ الشّمس ترسلُ أشعّتها النّاعمة على سفوح الجبال الشّرقية لبلدة "مُرْسِيَة"، وكما يمحو الحقّ عتمة الباطل فإنّ نور الصّبح يبطل ظلمةَ الليل، ويذيب حُلكته. وما إنِ ارتفع في الأفق نورُ الإشْراق؛ فإذا بالصّبح ينفلق عن يوم وليد. كانت أصواتُ العصافير تُغرّد في بهو البيتِ الكبير، ثمّ تهبط لتشرب الماء من النّافورة المستديرة في وسط ساحته، والتي تقع في مرمى النّاظر عند دخوله البيت الذي أحدقت به الأغصانُ الوارفات الخُضْر من كلّ جانب.

يقطعُ الطّريق المؤدّي إليه حديقة غنّاء وارفةُ الظلال، بها صنوفٌ متعدّدة من الفواكه والثمار، تبهج المارة أشجار التّفاح الناضجة عن اليمين واليسار في الغُدُوِّ والرَّواح؛ ومِن ثمّ فلن يقاوم العابرون مِن هنا ابتساماتهم عندما يرون بعض الصّبية الصّغار أثناء لَهْوهم، وهُم يتراشقون ماءَ الجدول الصّغير الذي يشقّ تلك الحديقة اليانعة. ترتفع الأشجار القديمة العالية على واجهةِ البيت؛ لتغطي قمّته فلا يستطيع أحدٌ من أهل بلدة "مُرْسِيَة"[١]

(١) مُرسِيَة أو مَرسِيَة، والنسبة إليها مُرسِيّ (بالإسبانية: Murcia) تلفظ مُرْسِيَا أو مُرْسِيَة، هي مدينة تقع في جنوب شرق إسَبانيا على ضفاف نهر شقورة، تطلُّ على البحر الأبيض المتوسط. هي عاصمة منطقة مُرْسِيَة. أسّسها عبد الرحمن الداخل عام ٨٢٥ م، ومن أهمّ شخصياتها في التاريخ الإسلامي: ابن عربي، وابن سيده.

من اختلاس النّظر إلى تفاصيلَ ومعالمِ ما يخْفيه كلّ هذا الجمال الخلّاب، وهذه الطبيعة الساحرة.

ويبدو أنّ العجوز "خوسيه" بعقله الماكر قد خطَّطَ لتلك الحيلة؛ فبلدتُه تعاني الفقر تحتَ وطأة تردِّي الاقتصاد كباقي مدن وبلداتِ الإمبراطورية الإسبانية؛ فمنذ أنْ تراجع حكم آل "هابسبورغ" وجميعُ البلاد ترضخ في لُجَج من الفوضى، وقد فشتْ فيها الأمراض، وكَثُرَ بها أعدادُ الفقراء الذين لا يجدون قوتَ يومهم.

وحسب الفقراء من ظلم الطّغاة أنّهم وقود جشعهم، وأوّل مَن تُسّعر بهم نارُ إسرافهم بغير جريرة.

بعد وفاة والدِ خوسيه أخذ على عاتقه المحافظةَ على هذا الثّراء بشيء من الحرص، بل أخذته الحيطة لأبعد من ذلك بكثير؛ فهو لا يستأجر العمّال ولا الفلّاحين، ويقوم هو وأخوه الشّاب "ماريو" بأعمال الفلاحة والصيانة.

يبدو للوهْلة الأولى أنّهما ثَريَّان جدًّا، ولكنّ ماريو لا يشعر بهذا أبدًا، فيداه المتشقّقتان، وثيابه البالية تُنبئ بحديث مغاير عن حال حياته الشّاقة، وهو الذي خرج لتوِّه من البيت مُتوجّهًا إلى المدرسة التي أنشأتها "كاتدرائية مرسية"[1] لتعليم الصّغار، وهو في الطّريق شعرَ بضيق في صدره،

(١) كاتدرائية ساينت ماري في مُرْسِيَة أو كاتدرائية مُرْسِيَة (أو جامع مُرْسِيَة كما عرفها المسلمون في عصر الأندلس)، هي كاتدرائية رومانية كاثوليكية، ومسجد سابق تقع في مدينة مُرْسِيَة الإسبانية.

وأحسبُ أنّه يفتقدُ إلى أحدهم؛ فحمله قلبه إلى حيث يمكنه الإفصاحُ عن كلّ خلجات قلبه دون أن يتعرّى بوحُه أمام أحد فيشفق عليه، وهو الذي لطالما اعتصمَ بالخشونة في أقواله وأفعاله؛ حتّى لا يُنعت بالضعف والخور.

جذبتْه حبالُ الحنين إلى قبر أمّه، وأخذ يشكو لها ما آلَ إليه حاله، يقول بعد أنْ جَثَا على ركبتيه وهو يبكي: لقد ضقتُ ذرعًا من حياة الفقر المُدقع تلك، ومن تسلُّط أخي خوسيه يا أمّاه... بقي على تلك الحال هنيهة أخذته فيها غمرةُ الحنين إلى شفقةِ وعطف أمّه عليه؛ حتى لكأنّه شعر في تلك اللحظات القليلة بدفء ذراعَيْ أمّه تحيط به، وتضمّه إلى صدرها كما كانت تفعل ذلك معه حينما كان يساوره الخوفُ أو الحزن من أيّ شيء.

كان يرى في حديثه لأمّه المتوفّاة حديثًا يُغْنيه عن النّاس جميعًا، وكما أنّ للنفس لسانًا واحدًا يعبر عنها فينطق بسعادتها وشقائها؛ فإنّ للأرواح حديثًا ينبئ به الإحساسُ لا غيره، ويشعر بصدقه وكذبه القلبُ لا سواه، والشعور أبلغ من البيان إنْ صدق، وليس لأصحاب المشاعر دليلٌ غير ما تُلقيه في دخيلة أنفسهم تلك الأحاسيسُ من حبّ وبغض، من ارتياح أو صدود.

وبينما هو على تلك الحال إذْ بيد دافئة تَربّت على كتفه الأيمن؛ فالتفت مسرعًا؛ فإذا به القسّ "جاك" ماثلًا أمامه، قائلًا له: هَوِّن على نفسك عزيزي؛ فلطالما كان في البكاء انفراجةً لكلّ همّ حبسه الصدر متصبرًا، فدمع العين ماء يسكبه القلبُ على نار الجوارح؛ فتخمد به كلّ أسباب الغضب، وبه تطبيبٌ لكلّ جراحات النفس، ولكن إيّاك أن تُسلم قلبك

لكلّ تلك الهموم؛ فهي تعتنق مَنْ يمهلها وقتًا أطول، وتغزو ملامح الناسك أنّها سنوات من التعاسة والألم.

وأنا يا صديقي لا تُطيق نفسي رؤيتَك على حال كهذه التي تُسلَب فيها كلّ بشاشة نفسك الطاهرة تحت سمعي وبصري، وأقف مكتوف الإرادة عاجزًا عن مواساتك! إنّك نفسي، ولكن بين جنبيك، وروحي التي لا حياة لي إلّا بها!

طأطأ ماريو رأسَه، وحرّكه أسيفًا، وعيناه تنْهمران بالدّموع، وإنه ليرتجّ كلّ مِفصل فيه من شدّة البكاء، وكأنّ نارَ الحزن في قلبه قد شبَّ لهيب حرّها في كلِّ أركانه، فهو لا يمتلك من نفسه شيئًا في تلك اللحظات.

ضمَّه القسّ جاك، وهو صديقه الذي ذاق فيه طعمَ الأخوّة الخالصة، وأخذ يهدئ من روْعه، ويبدو أن تلك الضمّة الحانية كانت كالماء العذب لماريو المسكين الذي تقطّعت بقلبه سُبل المودّة بينه وبين أخيه الأكبر.

خَرَجَا من المقبرة معًا، ومَضَيَا إلى طريقهما، فبالرّغم من أنّ القسّ "جاك" هو الصّديق المقرّب لماريو، فإنّه بالإضافة إلى ذلك مدير المدرسة التي يعمل بها، وربّما كان ماريو محظوظًا بتلك العلاقة التي ندرَ وجودها على مرِّ الزمان بين رئيس ومرؤوس، تلك العلاقةُ التي يتخيّلها البعض سيادة وعبودية؛ فأنت رئيس أي: سيد، ومرؤوس أي: عبد.

ولكنّ هذين الصديقين ضَرَبَا أروعَ الأمثلة، وإنّ من الأصدقاء مَن يقرأ الجرح قبل أن يشُجّ في النفس طريقًا، فينصح دونَ أن يجرح، ويعتب

دون أنْ يقطع، ويصل بغيْر وصل، ويفي حتّى وإن غُدر به، ويخلص بحبّ ووفاء منقطع النّظير، وهكذا كَانَا.

عند النّافذة المُطلَّة على حديقة المنزل الكبير، وقف خوسيه يمدّد ذراعيه إلى أعلى، ويبدو أنّه استيقظ لتوِّه من النّوم، يستنشق النّسيم العليل الذي يعانق صفحةَ وجهه حاملًا معه رائحة الثّمار الناضجة من فوق أغصان أشجار التّفاح، ثمّ أخذته برهةٌ من التفكير؛ فمرّة يبتسم، وأخرى يتجهّم، ثمّ بدأ يعدّ ثمرات الشّجرة القريبة من نافذته كعادته في كلّ صباح. وبينما هو كذلك راعَه شبحُ إنسان يتسلّل إلى غرفة ابنته "إيزابيلا"، كان بصرُه ضعيفًا؛ فلم يتمكّن من تحديد ماهية هذا المتطفّل الذي صعد مُتسلقًا شجرةَ التّوت القديمة، والتي تمتد أغصانها إلى شرفة غرفة ابنته، خفض خوسيه رأسه حتّى لا يراه هذا الدّخيل، ومن ثمّ يلوذ بالفِرار أو الهرب؛ يهرول مسرعًا في أرجاء الغرفة، مرّة يمينًا، وأخرى يسارًا؛ عَلَّه يجد ما يعينُه على الإمساك بهذا الدّخيل، بهدوء أيقظ زوجته؛ كان يهامسها في أذنها: لص! في بيتنا لصّ! فزعتِ الزّوجة، وقبل أن يرتفع صوتها وضعَ خوسيه يده على فمها قائلًا لها: اهدئي يا "ماري"، ما لهذا أيقظتكِ أيّتها الحمقاء؟ همست وهي مذعورة: إذًا، فما العمل؟! إيزابيلا في خطر، وربما أصابها مكروه! آه يَابْنَتِي!

أَسَرَّ لها ببعضِ الكلمات، ثمّ خَرَجَا من غرفتهما، كَانَا يسيران ببطء شديدٍ في الممر العَلويّ المؤدّي إلى غرفة إيزابيلا، أمسكت ماري بمقبض بابِ غرفة الفتاة، ولكنْ بحذر شديد، هبط خوسيه إلى الدّور السفليّ

مستخدمًا الدّرج الخلفيّ، ثمّ اتّجه إلى حديقة المنزل قاصدًا شجرةَ التوت التي استخدمها اللّص في صعوده إلى غرفة ابنته، وكان قد جلب معه عصا غليظة حتى يوسِعَ هذا الدخيل ضربًا.

تسلَّق الشجرة، وساعده جسمُه النّحيل على ذلك دون أن يشعر بالتّعب أو الوهن، كان كلّ غصن يسلمه لآخر، إلى أنْ أطلّ بوجهه داخل الغرفة ليجدَ ما لم يكن بحسبانه أنْ يجده؛ ثمّ صرخ عاليًا في نبرةٍ تنبئ عن كارثة وفجيعة واقعة، صاح: إيزابيلا!!

فتحت الأمّ الباب حينما سمعت صوتَ صياح خوسيه، لتجد ابنتها همَّت بالوقوف لتوِّها، وقد سقطت منها ثمار الفاكهة لتنتشر في ساحة الغرفة!

سألتها أمّها وهي مغضبة: أفعلتِها ثانية أيّتها الفتاة العاقّة؟!

ألنْ تكفّي عن إعطاء ثمارنا وطعامنا لهؤلاء المُشرَّدين؟

وقفتِ الفتاة مشدوهة، وكلّ حديثِ نفسها يدور حول موقف ضبطها متلبّسة بفعل الخير الذي لم يكن خيرًا في نظر هذَيْن الأبوَيْن! كيف لها أنْ تمتلك أمًّا لا تقلّ شأنًا عن والدها في بخله وشحّه؟ وكيف للقسوة أنْ تساق إلى دواخلهما جملةً واحدة بعد أن صُبغت طبيعتاهما بلون الحرص المقيت؟ وتساءلت: هل المال الذي يمتلكه المرءُ يكون سببًا لعمَى مشاعره وإحساسه بحاجات الآخرين؟!

أجابت إيزابيلا: نعم، ولنْ أكفَّ عن فعلها؛ فهؤلاء المشردون أناسٌ مثلنا، يتألمون ويحزنون لما يصبه عليهم الفقرُ من جوع وعطش وأمراضٍ

تفتك بفلذات أكبادهم، ولنْ تُفقرنا بضعُ ثمرات ستسكتُ جوعَ بعضهم لساعة أو ساعتين، ولقد وجدت فيهم مَن يؤثر ولده على نفسه؛ فيأخذ القضمةَ الواحدة من الثّمرة، ويعطي بقيتها لطفله أو طفلته أو زوجه، لقد رأيت الفقراءَ هُم أغنى الناس نفسًا؛ فإنّهم لا يسألوننا حاجة لأنفسهم، إنّهم يشعرون بألم غيرهم فقط. قالتها وهي تتملْمَل رعبًا وفزعًا كعصفورٍ صغير أوقعه القدرُ في شِباك صائده؛ فتلاشت حيلته، وضعفت قوته، وأصابه الوهن؛ فهو لا يستطيع الفِكاك أو الهرب.

لم تخشَ ما توعّداها به من عقابٍ أليم؛ لأنّ الحقّ معها يقويها ويرمّم ما تعمّدَا كسره بترهيبها، وتغليظ عقوبتها؛ فالحقّ له في نفس الإنسان الحقّ ألفُ شمس بنور الله مشرقة، والباطلُ مهما قوي عليه من الله لعنات كلّ يوم تُحرقه.

علمتْ إيزابيلا أنّها على الحقيقة التي لا شائبةَ فيها، وأنّ دربها الذي سلكته لإطعام فقراء البلدة هو سبيل السّعادة الخالصة، وهكذا يتمكّن النور ويستقرّ في قلبٍ له من الطهر والنقاء مثل ما انعقدت عليه سريرة هذه الفتاة؛ فما من طفلٍ بائس، ولا عجوز مُشرَّد، ولا امرأة مُعْوزَة إلّا وقد سكن قلبه حبّ تلك الفتاة الشقراء التي تتوهج من حسنها أَلَقًا؛ فتراها والشّمسَ قد أشرقَتَا من فلقٍ واحد، فكما شمسُ النهار تخرج من تحت رداء اللّيل البهيم؛ خرجت إيزابيلا من ظلام بخلِ وشُحّ والديها، ولَم تتأثّر نفسها بما رُبيت عليه من ضيق العيش وشظفه، رغم الرّحابة والسعة،

كالعير في البيداء عَطْشَى والماءُ على ظهرها محمول، هكذا كانت تنظرُ إيزابيلا إلى والديها مُرَدِّدَةً بينها وبين نفسها بين الفينة والأخرى: كيف لي أنْ أقاوم تلك السّعادة التي أراها في عيون الجوعى حينما يبصرونني مُقبلةً عليهم بثمار الفاكهة المختلفة، يا إلهي.. كيف أتجاهل حاجتهم، وأحيا بسلام؟!!

ها هي إيزابيلا اليوم تدفعُ ثمنَ تمرّدها على باطل والديها بعد أن نفَّذَا ما توعّداها به، وقَامَا باحتجازها أسفل قَبْوِ البيتِ المظلم، والذي في أحشاء ظلمةٍ ستكون على موعدٍ مع حياةٍ جديدة، وأقدار لم تردْ لها حتى بخيال.

إنّك إنْ أدرتَ لهم ظهرَك دفعوك بكلّ قوّتهم، وهناك فرقٌ بينَ مَن يدفعُك لتستمرّ ، وبيْن مَن يدفعك لتسقطَ على وجهك!

كلاهما يدفعُ وبكلّ قوّة، ولكنْ.. كلٌّ له دوافعه ونواياه... فإيّاك أنْ تسقط.

صفاء الفقي

(٢)

بكاءُ فابيان

عند بابِ البيت، وقف الصّغير "فابيان"، وهو ابن خوسيه المُدلّل، لقد كان يبكي بحرقةٍ شديدة، وتسيل من إحدى يديه الدّماء، هُرعت إليه أمّه، وما إنْ رأته على تلك الحال إلّا وارتاعت، وأصابها الجنون، وأخذت تصرخ: ماذا أصابَك يا صغيري؟! لا يكاد يبين قولًا من شدّة بكائه: عمّي ماريو ضرب بعضَ التّلاميذ ضربًا مبرحًا، والأولاد تجمعوا عليّ، وانتقموا منّي نكايةً به. سمعه خوسيه؛ فأخذ يرتجّ ويلتج بعد أنِ استشاط غضبًا، وارتفعت بداخله نار الحقد والانتقام لولده من أخيه الذي تسبّب فيما حدث له من اعتداء. قال في نفسه: ماريو، أيّها العنيد الأخرق، لقد طفح كيلُ صبري عليك!

“

إنّني رأيت الحبَّ يخطو فوقَ رؤوس الأزمات وكأنّه الجندي الوحيد الذي بنجاتِه هُزم البؤس والشّقاءُ في نفوس البُسطاء والمُتْعَبين..

صفاء الفقي

”

(٣)

عقابٌ غيرٌ مبرّر

عندما بدأ المعلّم بمعاقبة التلاميذ الفارِّين من حضور درسِ الأمس لم يكنْ يعلم أنّ عصاه هي السبب الرئيس لهروبهم المتكرّر، وكم من معلّمين تسبّبت عصاهم في ضياع أحلام الصّغار، وآمال الكبار.

كان بصفّ ماريو بعضُ التّلاميذ قد تكرّر تغيّبهم دونَ عذر مقنع؛ فلم يرَ بُدًّا من إعمال عصاه بحزم حتى لا يتكرّر فرارهم من جديد، كان شريطٌ من الذّكريات المؤلم لا يفارق خياله؛ حيث ذاقَ في صغره أسوأ ألوان العذاب على يدِ أخيه خوسيه الذي حمّله من الأعباء ما لم يكنْ لطفلٍ في العاشرة من عمره أن يتحمّله.

بعد حالةٍ من الصراخ والضّجيج أخذ يهدأ الجميع، وعاد السّكون ليعمّ المكان، ولكنّ أحدَ التلاميذ سقط أرضًا مغشيًّا عليه، ومن جديد يسودُ المكانَ حالةٌ من الفوضى التي جلبت على إثرها كلّ مَن بالمدرسة؛ حتى إنّ مدير المدرسة جاك انتبه للصّراخ المنبعث من صفّ صديقه، فذهب بنفسه ليتحقّق مما يجري هناك، وما إنْ دخل الصف حتى وقعت عينه على الصّبي مُلقى أرضًا بين يدَيْ ماريو الذي كان يحاول إفاقتَه برشِّ بعض الماء على وجهه، فأقبل جاك وأخذ يمسح بحُنُوٍّ على وجه الغلام، ووضع أذنَه على صدره ليستمع إلى نبض قلبه، وبينما هو كذلك إذْ بالفتى يفتح عينيه ببطء، ويتمتمُ بكلمات غير مفهومة، ولكنْ بَدَا عليه أنّ الفزع

والرعب قد أوصلاه إلى حالة يُرثى لها، بل زادت رهبته حينما نظرَ الفتى بعينيه الصّغيرتين ليجدَ هذا الرّجل المُهاب الوقور الذي يخشاه الكبير، والصّغير، والقاصي، والداني، وكلّ مَن بالبلدة حاملًا إيّاه بين كلتا راحتيه باسمًا مستبشرًا فَرَحًا بإفاقته، هدَّأَ جاك من روْع الفتى قائلًا: لا تخفْ، أنا هنا من أجل الاطمئنان عليك يا صغير.

نظر القسّ جاك إلى ماريو الذي بدتْ عليه علاماتُ الخوف والنّدم، ثمّ مال نحو أذنه هامسًا: عليك أنْ تأتي إلى مكتبي عقب يومك الدّراسيّ.

عند أحدِ الأسوار القديمة المحاذية للكاتدرائيّة استوقف رجلٌ طاعنٌ بالسنِّ أحدَ الأساتذة المارّين من أمامه متسائلًا: أين المدْعو ماريو؟ فأجابه: ستجده الآن عند مدير المدرسة جاك.

وعندما اقتربَ الرجلُ العجوز من باب مكتب المدير، وقد لمست أطرافُ أصابعه الباب ليطرقه؛ فإذا به يسمع صوتَ بكاء شديد، ويبدو أنّه يعلم مَنْ صاحبُ هذا الصّوت الحزين، فقال العجوز في نفسه: إنّه ماريو! ما الذي يُبكي هذا الأخرق؟كان حنانُ الأخوة مازال في قلبه يسعى، ذاك الحبّ الأخويّ الفطريّ الذي مهما أحدثت المفاسد الدنيوية فيه إلّا أنّه يبقى الأنقى، فالأخُ هو الإنسان الأوْحد الذي إنْ حضر قوي به أخوه، وإن غاب غابت معه القوّة والسند، فأطرق بأذنه إليهما عَلَّه يقف على أسباب الحزن والألم التي بدتْ ملامحه جليّة في صوتِ كلمات أخيه الأصغر حتى عَلَتِ الأرجاء أنفاسُ تنهّداته.

قال: أعلم أنّني أسأت التصرّف اليوم، فأنا حقًّا لا يمكنني فهمُ ما يحدث معي، إنّني أعتذر بشدّة يا جاك، وأعدك أنّ ما حدث اليوم لن يتكرّر. ابتسم جاك قائلًا- وهو الذي عُرف بين النّاس بحكمته ورزانته-: تعليم النشء رسالة سامية يا عزيزي، وعلى أثره تنهضُ الأمم، ولا أريدك أنْ تغلق أبواب الرحمة في وجه هؤلاء التلاميذ المساكين، فما عهدتُك شديدًا غليظَ القلب، ولا أريد لليأس أنْ يقبع بداخلك؛ فتغفل عن مواطن الخير في نفسك يا صديقي.

أطرَق العجوز خوسيه ثانية، فإذا بماريو يقول: لقد أضعتُ عمري في أشياء لا تعني لنفسي ولا لِمَا أحبّ شيئًا، وكأنّني قد جئت إلى الدنيا لأحقّق رغبات الآخرين فحسب؛ فأنا ثريّ بميراثي من أبي، ولكنْ أرتدي ثوب الفقر؛ إرضاءً لأخي الأكبر، ومن أشدّ العذابات على قلب المرء ألّا ينتمي إلى ذاته وصفاته التي تستنطق فيه الحياة، فهو حين يشعر بسكون روح الإبداع فيه حتماً سيموتُ قبل أجله ألف مرّة، وما أسوأ أن تعيش فقيرًا لتموت غنيًّا، أشعر يا صديقي كأنّ الكون يعاقبني على وجودي به!

قاطعه جاك- وكان جالسًا فوقف-: لِمَ كلّ هذا التشاؤم يا صديقي؟

فأجابه: أتعلمُ يا جاك كم مرّة تمنّيت فيها الموت؟ قد أدهشُك لو أخبرتك أنّه بعددِ أنفاسي.

قاطعه القسّ جاك: عليك أن تنسى أمرَ أموالك من اليوم، وأرى أنْ تتعايش مع حاضرك الآن، فأنت معلم فذّ في مدرسة تنتمي إلى أكبر الكنائس وأقدمِها في البلاد، بإمكانك أنْ تحيا حياة كريمة بعيدًا عن أخيك وأمواله.

قال ضاحكًا ونفسُه تتمزق ألمًا وحسرة: عنْ أيّ حياة كريمة تتحدّث يا أخي؟! أنا لم أتقاضى راتبًا منذ أشهر بسبب سوء الأحوال الاقتصادية التي تمرّ بها بلادنا، حتى إنّني لا أمتلك مالًا يُمكنني من استئجار بيتٍ آوي إليه. وكان جالسًا فقام من مكانه وهو يقول: حياة لم ترحمني صغيرًا فكيف لها أن تكرمني كبيرًا راشدًا؟! ثمّ يسترسل في حديثه قائلًا: أريد حقّي في حرية التصرّف بأموالي وحياتي الخاصّة كيفما أشاء؛ فأنا لم أعدْ صغيرًا! لا أرى لحياتي معنى وأنا أحياها مسلوبَ الحرية، هزيل الإرادة؛ فلست عبدًا عنده، وما منعني من مصارحتي له إلّا إكباري لشيبتِه، وعلمي بمدى تمسّكه بكلّ فلسٍ من أموال والدنا التي تركها، ولكنّ هذا حقي، وعليه أن يدرك ذلك.

وبينما هو يتحدّث إذْ بفرشاة ترتطم بالأرض سقطت من بين الأوراق التي كان يحملها، يبتسم جاك وهو يقول: أمازلتَ ترسم يا ماريو؟ فأجابه: كما تعلم، لقد مررتُ بأيام شديدة، كانت أوصالي تتمزّق في كلّ يوم فيها، وكانت نفسي تفيضُ بالجروح والأسى، ولم أستجمعْ بعض نفسي إلّا بتلك الفرشاة التي كانت تتحدّث إن سكت لساني، وتحلّق بروحي في سماوات العلا حين تبقيني الهموم في أخاديد الأرض، رأيتها تبكي إن حبست دمعي، وهي تضحك في وجهي كالرّبيع المشرق على الوجود ببساطٍ أخضر متنوّع بأبهى ألوان الزّهور، وتحييني بصورها العاكفة على الحياة إنْ أقبلتُ على الموت الأسود، فلولاها لَمِتُّ قهرًا منذ أَمَدٍ يا صديقي! إنّ رسوماتي هي متنفّسي إلى عالمٍ لم أشأ أنْ أحياه واقعًا؛ فأحسسته بخيالي، ولمسته بريشتي القديمة تلك.

من جديد يسأله جاك: وماذا عن أخيك خوسيه؟ لقد رأيته وهو يتشاجر معك وينهاك عن ممارسة الرسم، وأذكر أنّه نعته بالشيء المُقرف! ربّما يغضبه هذا الأمر، ألا تخشى ذلك؟

– خوسيه يمنعني الرّسم لأنّه يظنّ أنّه شيء لا طائل من ورائه، ولا منفعةَ منه، والرسم فن راق، وهو أحبّ إليَّ من نفسي، فلم أَجِد بُدًّا من ممارسته حتّى وإن كان بعيداً عن عينه، فهو لا يدّخر جهدًا في إظَهار بغضه لي ولأشيائي؛ لأنّني لست له بأخٍ ناضج متحمّل للمسئولية!

ثمّ أردف قائلًا: أحمدُ الربَّ الذي جمع بين والدك ووالدي في صداقة هي أفضل من أخوة، كتلك التي بيني وبين أخي خوسيه الذي جعلني خادمًا عنده منذ الصّغر، وطمع في مالي، وضمَّه إلى أمواله، حتى المزرعة الصغيرة الموجودة بأطراف البلدة ضمّها حديثًا إليه، وقال لي: لن تأخذ من أموالك فلسًا واحدًا إلّا إذا تزوّجت بابنة "قائد الشرطة لوبيل" وأنا لا رغبة لي بالزواج الآن. قد طار إلى مسامعي من سوء خلقها، وقبحها، وعجرفتها ما يجعلني لا أفكّر بالزواج منها، بل ولا من غيرها.

هنا قاطعه جاك قائلًا: لا تحفل كثيرًا بما يتطاير إلى مسامعك يا صديقي العزيز؛ فهذا ينافي نقاء القلب وطهارة المكنون، وأنا ما عهدتك إلّا نقيًّا طاهرًا؛ فلماذا حكم قلبُك بعدم القبول للفتاة؟! صدّقني لو كانت الأمور بما ظهر منها لكرهنا أنفسنا!

ألا ترى يا صديقي أنّ قلبك يرتدي نفسَ هذا الثوب المُتَّسخ بالحذر والريبة بغير حقّ؟ وعين الناس تقع على ما ترغبه، وتنفر ممّا يتسبّب في ألمها، وربما ألحقت به ما ليس فيه، وربما ظُلمت الفتاة بسبب سوء سمعة

والدها قائد الشرطة الذي يستأسدُ على الضعفاء فيسلبهم أموالهم وديارهم بدعوى تطبيقِ القانون، وهو أوّل الخارقين له بالظلم والإفساد في الأرض بغير الحق. أَعْطِ الفتاة فرصة لربّما بدتْ لك على خلاف ما سمعت، فيصيبك ندم ظلمها بغير ذنب.

ينصرف خوسيه دون أنْ يلحظ جاك وماريو وجودَه، حدَّث نفسه قائلًا: كيف لمُدَلَّلٍ مثلك يا ماريو أن يعي عذابات حرمان عجوز شابتْ مهجته وابتلعتْ عمره ليالي الخوف على المال الذي جمعه والدنا بالكدّ والعَنَتْ، إنك يا صغيرُ لم تذق الفقرَ يومًا مثلما ذقتُ أنا وأبوانا حينما كنّا نطوي الليالي جوعًا وعطشًا، بل كيف كنّا نرابي التجار، ونصبر حتّى شاء الله لنا أن نخرج من ثوب الفقر بتلك الثروة!

جاء خوسيه يشكو من ماريو لجاك، وكان وجهه يتَّقد من شدّة الغضب والغيظ، ولكنّه ينصرف وخطواته أشبه بمَن يسير على شوك القتاد مما سمع، وربّما كانت تلك هي المرّة الأولى التي يستمع فيها خوسيه إلى صوت قلب أخيه، والذي نزل على قلبه كالسّيل العَرَمْرَم، فهو كان لا يعي من الدّنيا غير سُبل جمع المال، وطرق الحفاظ عليه، والمال وحده بكلّ مشتقّاته لا يَستطيع جمع ساعة من السعادة في قلب إنسان تشرّبت نفسه الأسقام ظاهرًا وباطنًا.

شعورٌ غريب يجتاح فؤاد العجوز لأوّل مرّة، كان يقاومه كلّما نظر إلى وجوه الفقراء الذين يفترشون طريقه بلا مأوى، يتنازعهم وَحْشَا الجوع والحاجة دون رحمة.

أيّها العجوز اللئيم: كيف حالك؟ إنّه "جون"، وهو أحد أصدقاء خوسيه، كان يمرّ بالقرب منه، فلوَّح إليه بيده، وقال: إليك عنّي، لست بخير الآن، ومضى.

وفي منعطفِ الطّريق لاحظ خوسيه عربة قائد الشّرطة لوبيل تشقّ الطريق شقًّا، وتقترب من بيته الكبير، ويبدو أنّ قائد الشرطة قد أتى على موعده؛ ليتفقّد المزرعة القريبة من البيت، فهي كبيرة، وإنتاجها يزيد كلّ عام عن سابقه.

أقبلَ على ضيفه باشًّا طَلِقَ الوجه باسم المُحيّا، وقد أخفى خلف ابتسامته شعورًا بالحسرة كاد يمزّق حشاشة قلبه، دَنَا من قائد الشّرطة الذي نزل لتوِّه من عربته، وقال له: طاب مساءك سيّدي قائد الشّرطة. فردّ عليه التحية، ثمّ تبادَلَا السّلام، كيف حالك أيّها العجوز الطيّب؟ كان قائد الشرطة رجلًا حاذقًا شديدَ الدّهاء، وقد تَفَطَّن إلى تملُّق خوسيه له، وقرأ في عينيه بريقَ شغفه بالأموال، وحرصه الشّديد على جمعها، وحبّه لكلّ سبيل يؤدّي إليها، وكان مما وقع في علمه أنّ خوسيه وأخيه يمتلكان ثروة كبيرة جعلتهما أثرياء تلك البلدة بلا منازع، وإن كَانَا على خلاف ذلك ظاهريًّا؛ فهما أثرياء، ولكن في ثياب الفلاحين الخشنة، وأحيانًا المُرَقَّعة، كما أنهما لا ينتعلان إلّا النعال البالية التي لا تقي أقدامهم برد الشتاء، ولا تمنعها قيظَ الصيف وحرارته، وإنّ الناظر لهيئة أحدهما لا يكاد يميِّزه عن الفقراء المساكين الذين لا يجدون قوتَ يومهم، فلا تُرى عليهم أثر نعمة تغبطهم نفوس الناس عليها، ولا يطمع في جوارهم طامع، وقد عزم هذا

العجوز الماكر على أنْ يجعل تلك الثروة أكبرَ بزواج أخيه ماريو من ابنة قائد الشرطة الجميلة "فيولا" ذات الثمانية عشر عامًا، والتي لم تلمسْ عيون الناس شيئًا من أثرها؛ فهي قابعة خلف جدران قصر والدها، تشبه بحر الجنوب في زرقة العينين، ووجهها والقمر يتشابهان في الحسن والضياء، وشعرها كالليل أسود، انسدل من رأسها إلى منتصف ظهرها، حين تتحدّث تنطق بالحكمة، لها شفتان كحبتَي الكرز المجتمعتَيْن في غصن واحد، والثغر اصطفّ على صفَّيْن من اللؤلؤ، وبهما تتمّة جمال أبهى فتاة تدبُّ بقدمَيْها على أرض المملكة.

قائد الشرطة لوبيل لم يكنْ يريد شراءَ المزرعة، لم يكن ليدفع فلسًا واحدًا لهذا العجوز الماكر، هكذا كان يحدث نفسه دائمًا، أنّه يطمح ويطمع إلى ما هو أكبر من ذلك بكثير، لقد أراد كلّ أملاك خوسيه دونما أي مقابل؛ حتى يتسنّى له أن يُرضي غروره وجشعه المتنامي في أن يكون أغنى رجل في بلدة مُرْسِيَة، ولن يتحقق له ذلك إلّا باستعادة أرض عائلته التي أخذها والد خوسيه مقابل أموال اقترضها منه والد لوبيل، ولم يسدّدها في موعدها المحدد، كان قائد الشرطة يتّقد قلبه حقدًا وحنقًا على خوسيه وأخيه، ولا يرى في الدّنيا كلّها أحدًا مستحقًّا للبغض والشّر أكثر منهما، فهما في نظره لِصَّان بما ورثاه من أبيهما، ومصدر تعاسة عائلته.

كان قائد الشّرطة لوبيل ينظر في عينَيْ خوسيه باسمًا، ولسانُ حاله يقول: اقترب الوقت الذي سأذيقك فيه كأسًا علقمًا يومَ لا ينفعك فيه حرصك وبخلك أيّها اللئيم الأخرق.

سيدي قائد الشّرطة، هل أُطلعك على الجانب الغربيّ للمزرعة؟ فإنّ بها إسطبلًا للخيول، ولن تندم على إلقائك نظرة هناك. قالها خوسيه بعد أنِ اشتمّ رائحة الفرحة والانبهار وهما يفوحان من قائد الشّرطة لوبيل، ولَم يكن يدرك أنّ لوبيل قد بَيَّت النّية وعقد العزم على إخراجه من جنته دون أيّ مقابل يُذكر، فما أعدل أن يقابل الطمع بنقيضه!

ويحْملُــك اللهُ عــلى أكــفّ مــن

الرّحمات إنْ مددت للعلم يدًا..

صفاء الفقي

(٤)

إيزابيلا بِالقَبْو

كانت إيزابيلا تمتلك خيالًا واسعًا وروحًا متّقدة بالفرح، وعيناها تمتلآن بالأمل كزهرةٍ باسقة تُبهج كلّ من يراها، قلبها ينعم بالسّلام في لِينٍ ورقّة تنبض بالحبّ والشجاعة، وقلّما تجتمع كلّ تلك المحاسن في أنثى.

بعد أنْ وضعها والداها في القبو عقابًا لها أخذت تُفكّر وتعتصر نفسها من شدّة ما تشعر به من ألم.

إنّها لا تخشى الظّلمة التي لم تعهدها من قبل، ولا الفئران التي تتحرّك وتصدر أصواتًا من حولها، إنّ كلّ ما يشغل بالها الآن هو ذاك الطّفل المسكين الذي ينتظرها خلف الحديقة بعد أن وعدته بأنها سوف تأتي له بسلّة من الفاكهة الناضجة؛ ليحملها إلى أسرته التي تَتَضَوَّر جوعًا، ولا تملك من حطام الدّنيا شيئًا، وهو الآن يترقّب مجيئها خلف حديقة البيت، وربما إنْ لمحه أحدٌ من والديها ظنّوا أنّه لص؛ فيوجعونه ضربًا كما هي عادة والدها.

كان في جدار القَبْو نافذةٌ صغيرة جدًّا يتسرّب منها ضوء الشّمس، كانت تلك النافذة بمنزلة شمس كاملة، ومع مُضُيِّ الوقت كانت تعني لها الحياةَ بأكملها، فالضوء المُتخلِّل للمكان كافٍ للبحث عن أشياء تمكّنها من تسلُّق الجدار المشرف على الحديقة الخلفيّة للبيت؛ عَلَّها تستطيع إخبارَ الصّبي الذي ينتظرها بما حَلَّ بها؛ فينصرف باحثًا عن مصدر آخر يتقوّت به،

وهنا تدرك إيزابيلا أنّ القلوب التي تعتنق فكر التّضحية لا تسلم من تسلُّط يد الأثرة وحبّ الذات الفانية، وكأنّ الحياة قضت على القلوب الطّاهرة بألَّا تكتفي بما يتوجّب عليها فعله تجاه غيرها، بل تُلزم نفسها بما يفوق ذلك، أنْ تشعر بهم دون حديثٍ بلسان أو إشارة بطرف عين باكية.

بهمّة ونشاط أخذتْ تضع الأشياء فوق بعضها البعض مُكوِّنةً كومةً كبيرة من الأشياء القديمة المخزنة بهذا القَبْو، ولكنْ دون جدوى، وبعد كلّ هذا العناء ورغم ما بذلته من جهدٍ فلم تستطع بلوغ منتصف ارتفاع الجدار؛ فتمكَّن اليأس منها عندما شعرتْ بالعجز التّام، ولكنها لم تكفّ عن التفكير في طريقةٍ من بلوغ تلك النافذة، أخذت تلتقط بعضَ أنفاسها في جانب من جوانب القَبْو، تبتسم عندما تُحدث معدتها صوتًا من شدّة الجوع، وتتذكر كم كان هذا يزعج أخاها فابيان، كان الصوت الآتي من داخل أمعائها الخاوية وسام شرف؛ لأنه تطبيقًا عمليًّا للمساندة والمواساة لكلّ مَن مزَّق الجوع بطنه حتى أضفى على ملامحه من ألمه شبهًا، فما من جائع يجوب في الشّوارع والقفار إلّا بينه وبين كدرة اللون شبه.

وبينما هي كذلك إذا بصندوق كبير أشبه بتابوت عظيم، يَصْدُرُ من باطنه ضوءٌ قويٌّ لم تلحظ أنها قد أَعارته حينما استعانت بالأشياء القديمة التي كانت تعلوه وتغطّيه، لم تُصدّق عينها، وظنّت أنّها من شدة الجوع تهذي، أخذت تقترب بخطوات حذرة من التابوت المُشِعِّ بالنور، وما إنْ دَنَت منه حتّى رأته يتحرّك نحوها ببطء؛ فذهلت مما رأت، وأخذت ترتعد في جانب القَبْو تبكي، وقد انقطع صوتُها من شدّة الخوف والفزع، بقيت على تلك الحال للحظات حتى أُغشي عليها.

قضى اللهُ ألّا يبتسم ثغرُ الحياة لقلبٍ عابسٍ غافل..

صفاء الفقي

(٥)

عالمٌ أسطوري

أفاقت لتجدَ نفسَها مُمدّدة على أريكةٍ كبيرة تغطّيها فُرش ناعمة الملمس، لم ترَ لها مثيلًا من قبل، كذلك فإنّ الستائر المنسدلة خلفَ نوافذ هذه الغرفة من الحرير الناعم الذي يشفّ ما خلفه من نوافذ زجاجها، مطعّم بألوان مختلفة من الأحجار البرّاقة الجميلة، والتي أخذت تحرّكها نسمات الهواء العليلة فتصدر أصواتًا، هي معزوفات طبيعية تعانق الأذن فتملؤها بالطّمأنينة والسلام.

وقفتْ على قدميها في دهشة، وقد تَغَشَّتها كلّ ألوان البهجة والعَجَب من روْعة ما تشاهده! عينها تدور بكلّ تفاصيل الغرفة، وعلى بُعد خطواتٍ من الأريكة التي كانت نائمة عليها، كانت هناك منضدة يعلوها إبريقٌ من المعدن الأصفر، يبدو أنّه من الذّهب الخالص، به عصيرٌ ذو رائحة طيبة، دفعها شغفُها وفضولها للنظر إلى النافذة الموجودة على يمين الأريكة.

وما إنْ بلغتها وأطلت بكلتا عينيْها خارجها إلّا وأصابها العجب من جديد، كان المنظر الذي أطلّت عليه بديع الجمال، جبالٌ ذات ألوان وفيء وأشجار، ومروج وارفات شاسعة، وظلال ومياه تجري من تحت هذا البناء الذي تُطلّ منه.

أخذت تتساءل في حيرة ودهشة شديديْن: أين أنا؟!

وما هذا النّهر الكبير؟ وما تلك الأبنية الغريبة؟ ماذا حلَّ ببلدتي؟ أين أكواخ الفقراء؟ لقد كانت قريبة من بيتنا الكبير، أين حدائق التفاح؟ أين بيتي؟

ظنّت للحظات أنّها فارقت الحياة، وأنّ ما تراه بأمّ عينها الآن هو الجنة!

ولكنْ تلاشى في فضاء الخوف هذا الظنُّ الجميل عندما سقط بصرُها على أحد الوحوش، وهو يُحلق بالقرب منها، لقد جثَم على كيانها الفزعُ بعد أن أخذ يحدّثها بكلام لم تفهمه، ويشير لها بإشارات لم تعِ مرادَه بها.

هُرِعت إيزابيلا نحو باب الغرفة لتفتحها؛ فإذا بوحشٍ آخرَ يمنعها من الخَروج، هذا الوحش مُدَرَّعٌ يشبه الذي حَدَّثها منذ قليلٍ، ولكنّه دونَ أجنحةٍ سوداء كتلك التي يمتلكها الذي رأته منذ قليل.

ورغم أنّ هذا الوحش لم يقربها بسوءٍ إلّا أنّ منظره جعلها ترتعد، وتلوذ بالفرار إلى الغرفة من جديد.

وبينما هي في غمرةِ تعجُّبها التي كادت تفتكُ بها جنونًا سمعتْ صوتَ أحدهم يناديها باسمها قائلًا: إيزابيلا، لا تخافي، أنتِ هنا في عالمكِ الأسطوريّ الذي لطالما حلمتِ به، ومن أجل أنْ تعي ما يحدث لا تتعجّلي فهم كلّ ما يجري الآن، وأمّا ما سيحدث في قابل الأيام فوحدَك مَن يملك حرية اختياره.

صاحتْ بصوتها الذي أنهكه الخوفُ وأوهنه الفزَع: مَن أنت؟! ومِن أيّ مكان تتحدّث؟ ولماذا لا أراك؟!

فأجابها قائلًا: أنا حارسُ التّابوت الذي أتى بكِ إلى هذا العالم.

وكأنّ قدميها قد التصقتا بالأرض، ووقفت مشدوهةً من هَوْل الموقف، ثمّ مَرَّ شريط ذكرياتها كالبرق الخاطف؛ فتذكّرت أنها رأت النورَ يخرج من باطن هذا التابوت؛ لتستيقظ وتجدَ نفسها في هذا المكان الغريب، اقترب الصوت منها شيئًا فشيئًا حتى دنا من أذنها، فهامسها قائلًا: لقد انتظرتكِ طويلًا يا قرينة إلهامي، وموقد سعادتي. وهنا فزعت إيزابيلا، وتملَّكها الخوفُ الشديد، ولم تستطع الوقوف؛ فأوشكت أن تسقط، وقَبل أنْ تتهاوى أرضًا إذا بشابٍّ لم تبصر عينها مَنْ هو أوْسَم منه يحملها بين كفّيه قائلًا لها: أنتِ أقوى من ذلك إيزابيلا!

سألته: هل رأيتَنِي من قبل؟ أتعرفني؟ فأجابها الشاب: نعم، وأعلم أنّك تمتلكين قلبًا مُحبًّا للخير، وما أتيت بك إلى هنا عبثًا، أنتِ يا عزيزتي مدعوّة إلى مصير عظيم، وقدرٍ كبير؛ فنحن الاثنان نحمل على عاتقنا نصرة المظلومين في كلّ زمان ومكانٍ، وأنت هنا لخوض آخر المعارك على وجه الأرض؛ لدحر جبابرة الجنّ الذين أفسدوا الدنيا بظلمهم.

قالت: ولماذا يفتقرُ مَن هو في مثل قوّتك لفتاة مثلي محدودة القوى؟ فكلّ ما أجيده يا سيدي هو قراءة القصص، ومساعدة بعض المحتاجين في الخفاء! قال لها: إذا كان الإنسيّ يمتلك قلبًا محبًّا للخير مثلك يا إيزابيلا؛ فهو قادر على هزم جيوشٍ من الإنس والجنّ معًا، لقد كنت أراقبك، فكمْ من فقير عاونتِه على هزمٍ وحشِ الجوع بعد أن كاد يهلكه الخِماص، ويسلمه إلى الموت تسليمًا لا عودةَ منه.

على وجلٍ تُراقب كلماته، لا تبحث على ذلّة، ولكنها كمَن أدركه غرق التيه في ظلمةِ الجهل بالحوادث الجامحة، فهي تبحثُ عن خيطٍ من نور الفهم، تجدُ منه لغربتها دليلًا تأنس به نفسها الحائرة.

سكتتْ هنيهة، ثمّ قامت من مكانها، وأخذت تسترقُ النّظر لهذا الذي أتى بها من عالمها الذي ألفته وعرفته إلى عالمٍ مجهول وغريب؛ قالت له: يبدو أنّك تعرف عني الشيء الكثير يا سيد...ً؟ فأجابها: عفوًا لم أعرّفك بنفسي آنستي الجميلة، اسمي: "برقان".

اطمأنّت الفتاة لحديث برقان، وزال خوفُها الشّديد منه، ويبدو أنها صدّقت دعواه في احتياجه الشديد لها؛ لمساعدته في حربه الأخيرة ضدّ أعدائه من جبابرة الجن المفسدين!

كانت علامات الاستفهام تدور برأسها، والتعجب يستحوذ على كيانها، تقول في نفسها: لا أصدّق هذا، ربما أنا نائمة! ما كان هذا ليحدث أبدًا! فيقطع فكرَها برقان قائلًا: لا يا آنستي، لستِ بنائمة. فتزيد حيرتها مِن هذا الذي يقرأ حديثَ نفسها، ويخبره بما يدور في خلدها، فتتلعثم وهي في أوْج حيرتها، تتساءل: كيف استطعت ذلك؟ فيجيبها: إنّني أجري في عروقك، وأُقدّر اندهاشك ممّا يحدث هنا. فتتسارع خفقات قلبها، وهي تُفكر فيما ينتظرها في قابل عمرها بهذا العالم الجديد.

بخطواتٍ حذرة تحرّكت إيزابيلا نحو الشّرفة؛ فإذا بالشّمس قد مالت، واحمرّ لونها، وتأهبت للمغيب في ثوب من الشّفق الأحمر، بعد أنْ تعانقت

أشعّتها بروح النّهار المنصرم بين يدي الرحيل في جانب السماء الغربي كعشيقين يوشك كلّ منهما توديع صاحبه.

وهي التي لا تخفي حبّها لذلك المشهد، فدار بخلدها حديثٌ من الأماني لم يكن ليغيب عن سمع وشعور مُرافقها، قالت وهي شاردة في لوْن خيوط النّجم الرّفيعة المنسابة على صفحة الأرض: لطالما حلمت بأن يكون لي جناحان من نور الشّمس؛ حتى يتسنّى لي الذهاب إلى مدار هذا النّجم العظيم، فأعانقه دون أن تحترق أحلام عودتي، أو تتبخر في الكون نسمات أجزائي.



بعضُ المسافاتِ إلى القلوب تقطعُها رسالةٌ صادقة...

صفاء الفقي

(٦)

أجنحةُ إيزابيلا

لم تبرحْ مكانها عند الشّرفة حتّى شعرت بحرارة تنبعثُ من كتفيها؛ فالتفتت خلفها تبحث عن برقان الذي استدبرتْه منذُ قليل، وهي واقفة تتأمّل غروب الشمس فلا تراه؛ فتعاود النّظر إلى الشمس مرّة أخرى فترى أمام عينيها كائنًا ضخمًا ذا أجنحة عظيمة، قد غطَّت الأفقَ القريب والبعيد. ارتعدت الفتاة المسكينة، ولكنّها تماسكت، وأظهرت بعضًا من بسالتها، فقد وقَرَ في نفسها أنّها في عالم أسطوريّ، كلّ واقعه غريب وغير مألوف بالنسبة لها، ناداها بعد أنْ مَدَّ يديه الضّخمتين: آنستي الجميلة، اصعدي. عَلِمَتْ أنّ صاحب هذا الصّوت هو برقان؛ فأذنها قد حفظت صوته، ولكنها أخذت تحدّق فيه بشرودٍ وذهول، فهي تتحسّس كلّ تفاصيله المفزعة بشيء من الرَوِيَّة والسّكون، فيضيق فهمها لكلّ ما يجري، وحدود خيالها لم تتجاوز أفقَ معرفتها.

بعدَ كلّ هذا الارتباك وما أحدثتْه الصّدمة الأولى من زلزلة لكيانها الداخليّ كاد منه يتجمّد الدم في عروقها، كانت هذه أوّلَ مرّة ترى فيها هذا المخلوق على هيئته الحقيقية! قطعَ شرودها ودهشتها بأنْ مدَّ ذراعيه ووضعها فوق ظهره، وانطلق بها في الأفق يشقُّ السّماء والغيوم، رأت القمر، وكان هلالًا وليدًا، وقد بدأ لتوِّه يرسل بعض ضوئه بعد أنْ دنت

الشّمسُ من المغيب، تنظر لأسفل؛ فتُصاب بالفزع من هذا العُلُوِّ الشّاهق الذي لم يسبق لها أن تبلغه، لم يخطر ببالها يومًا أنّه سيتحقّق حلمها الذي لطالما كان يُراودها كلّما أغمضت عينيها في المساء، فترى نفسها تحلق في السماء، وترى الكواكب عن قرب وهي على ظهر كائنٍ غريب، وتذكّرت أيضًا أنها كانت تروي هذا الحلمً لوالدتها، ولكنها لم تُعِرْها أيّ اهتمام، ولم تَنَلْ منها إلّا التهكُّم والتّقليلَ من أمر هذا الحلم، وكانت تأمرُها بالتوقُّف عن قراءة قصص الأساطير؛ لأنها تفسد عقلها!

كانت بين الغيوم تلمسها بكفَّيْها، ولكنّ عقلها يحيا حالةً من عدم التّصديق، وقلبها يخفق من وقع الفرحة، ولكنْ راعها شعورٌ غريب بقوّة حرارية عاتية، تنبعثُ من عظام كتفيها، ثمّ بدأت الحرارة تتحوّل إلى هالة من الضوء الأبيض خلف ظهرها؛ ليتشكّل منه جناحَان عظيمَان قد دبَّت فيهما للتوّ روحُ الخفق الأولى.

كانت تحاول النظرَ لجناحيها عندما اختلَّ توازنها، وسقطت من فوق ظهر حاملها، حاولت يائسةً أن تحرّك جناحيها، فيمسك بها برقان قبل أنْ ترتطم بإحدى قمم الجبال التي كانوا يُحَلِّقون فوقها.

يبدو أنّ إيزابيلا لم تعدْ تخشى هذا العالم الغريب؛ فقد ألفته، وتعوّدت على غرائبه وعجائبه، شأنها في ذلك شأن طائر خرج من أحضان أمّه يتعلّم كيف يطير، فارتعدت أجنحته عند أوّل خفقةً، ثمّ صار ماهرًا يُحَلِّق كيف شاء وأنَّى شاء.

ولكنْ، لماذا ألفتْ تلك الفتاة غرائبَ هذا العالم؟ لأنها وجدت فيه ما يحقّق أحلامها، ويروي عطش خيالها، فرحلتُها مع القصص الأسطورية طويلةُ المدى، فلطالما كانت تردّد تلك الأساطير وتتغنّى بها في مجالسها، وتحكيها في خلواتها وبين رفيقاتها، ومِن بين تلك الأساطير اليونانية القديمة التي شغفت بها أسطورةُ البياض والياسمين التي أخذت أحداثها بالتّماهي أمام عينيها الآن.

تقول الأسطورة:

كأيِّ عاشقين حدثَ بينهما خصامٌ فافترَقَا، فتركت له حبيبته الكوكبَ لتهيم بحزنها بين الكواكب، ولكنه لم يستطعْ تحمُّل الفراق؛ فكان يتبعها من كوكبٍ إلى آخر، وعندما يصل إلى كوكب يجدها قد غادرته؛ فيواصل البحث عنها بين الكواكب الأخرى، حتّى وصلت الأرض؛ فبكت، ومكان كلّ دمعة سقطت من عينيها نبتتْ زهرة بيضاء؛ حتّى امتلأت الأرض بالزّهور؛ فرحلت، ووصل بعدها حبيبُها المكان بعد أنْ غادرته؛ فرأى الزهور، وعلم أنّها كانت هنا؛ فانحنى يعانقُ تلك الزهور شوقًا وهيامًا وحزنًا على فراقها، فكان كلّما قبض على زهرة ليعانقها انحنت له فلوّنها، فقبض على أخرى فانحنت له فلوّنها، وعلى هذه فانحنت فلوّنها، وكلّ زهرة انحنت له أصبحت ملوّنة، إلّا تلك التي رفضت الانحناء له، إنّها زهرة الياسمين؛ ولأنّها لم تنحنِ ظلَّت بيضاءَ حتى الآن.

ولكنّ إيزابيلا مثل زهرة الياسمين تخشى الانحناء بين يدَيْ برقان، ولا تريد أن تتلوّن بالغرائب والعجائب، فهي الآن ترمق نفسها بشيء من الاستنكار والخجل.

ويبدو أنّ هيئة الجنّ المرعبة لم تشعلْ بخافقها هديرَ الجزع، ولم تُنبت في روْعها نار الفزع من هذا العالم المتماهي في غرابته، وهذا ما كان يرجوه ويصبو إليه برقان منذ أنْ وقع اختياره عليها، فكلّ ردَّات فعلها مألوفة الصدى لديه، وكيف لا؟ وهي مَن شَبَّت أمام عينيه، فهو يدري بما يجول بخفايا مكنونها، ويعلم عنها ما لا تعلمه هي عن نفسها، لَبَّت نداء رغبتها في استعراض تلك الملكات الجديدة؛ فحلَّقت وارتفعت عاليًا حتّى رأت من بعيد أشجارًا كثيفة في الغابة القريبة منها، وهي مُلْتَفَّة الأفانين مُخضرّة نَضرَة، يعانق بعضُها بعضًا؛ فاتّجهت صوبها باندفاع يقودها شغفها وفضولُها، وربما حنينُها؛ إلى ربوع جَنّة بيتها التي ترعرعت بها، فأخذت تقترب أكثرَ وأكثر؛ تريد معرفة ماهية هذا المكان الذي سرق لُباب عقلها بسحر جماله وبهاءِ منظره.

وهكذا هي الطّبيعة الخلابة التي لم تعبث بها الأيدي، ولم تلوّثها الدّخائل المستحدثة التي عكّرت صفوها، وأثرت في حسنها وجمالها، ولكنّ هذا الأمر لم يتقبّله برقان الذي وقف أمامها مانعًا إيّاها من إكمال طيرانها نحو تلك البقعة؛ ليخبرها بأنّ تلك الأرض مُحَرَّم عليهما دخولها الآن.

هَبَطَا أعلى قمّة جبل مرتفعة، كان بإمكانهما الاستمتاع برؤية الغابة من بعيد، جَلَسَا معًا يملآن عيونهما وأفئدتهما بمشهد المغيب والشّفق، تلك الهالة الحمراء التي تأبّطت جانب السّماء الغربيّ تنعي للمتفكّرين قصّة رحيل يوم كامل خلف الحُجُب، مضى نهاره حقيقة لا خيال، وانتهتْ أنفاس روحه بشهقة خُضّبت منها سحائبُ السماء دماءً، وأسدل الليل بسُدُلِه السّوداء، وكأنه يعلن حالةً من الحداد الكونيّ إلى أنْ يأذن الله بفجر جديد.

أخذت إيزابيلا تتحسّس جناحيها، وتحرّكهما في فرح وسعادة غامرة كطفلٍ صغير في ثوبه الجديد، يغزوه السّرور ويحدوه الأمل، ثمّ سألته كيف يمكنني أنْ أعود لعالمي بهذه الهيئة المختلفة؟ حتماً سينكرني الناس، وربما يصيبهم الخوف والهلع مني؟ فقال لها: إنّ ظهورك بتلك الصّورة أمام البشر ضربٌ من الخيال، ونوع من المستحيلات، قالت–والابتسامة ترتسم على ملامحها–: فلماذا لم أَجِدْ تلك الصعوبة في تَقَبُّل هذا العالم الجديد، ولم يخالط نفسي الجزع منك؟!

فأجابها: لأنّك يا عزيزتي قد عايشت هذه الحال خيالًا بين صفحات القصص وأروقة الأساطير؛ فأضحى مألوفًا لديك، وبات غيرَ غريب عنك.

كان برقان قد وجّه وجهَه نحوها بعينيه الدّائرتين وجبهته العريضة التي تنتهي بقرنَيْن بارزَيْن في جانِبَيْ رأسه، وأذنَيْن مُدَبَّبَتَيْن كأذن الحصان، وذقن من المنتصف غائرةٍ تحت فمٍ برزت منه الأنياب من كلّ جانب.

تحدَّثَا طويلًا، وكان أكثرُ حديثهما عن تلك الغابة وما فيها من عُتُوٍّ وفساد رغم جمالها وسحر طبيعتها، وهي رغم دهشتها ممّا يحدث معها فإنها لا تكفّ عن التمعُّن والتعمُّق في ملامح هذا الوجه المخيف؛ فلا تجد في نفسها خوفًا منْه ولا ريبة، وبعد أنْ أخبرها بأمر الأرض المُحَرَّمة التي مُنع من الاقتراب منها عقابًا له لمخالفته أوامر حكامها من جبابرة الشّياطين قال: لقد أَبَتْ نفسي الرّضوخ لقوانين فوضاهم الجائرة، بعد أن اعترضت على مقتل العديد من الأبرياء الذين لا ذنبَ لهم ولا جريرة سوى أنهم ضعفاء لا يستطيعون الذَّوْدَ عن أنفسهم وذراريهم، والذين لم يقترفوا أي جُرم غير أنّهم امتنعوا عن تطبيق شريعةِ الظلم والبَغْي بغير الحقّ على الضعفاء من بَنِي القبائل الأخرى المسالمة، بعُتُوِّهم قد ضَلُّوا وغفلوا أنّ الفَلك دوّار، وأنّ الزمان يُستدار، فقد يصبحون يومًا، وتشرق عليهم الدنيا وهي تتبسم في مُحَيَّاهم، ثمّ في اليوم التّالي تكشّر لهم عن أنيابها الزّرقاء دون أن تجد غضاضةً في إظهار قبحها لهم.

في تلك اللّحظات تَسَرَّب شيء من الخوف وعدم الارتياح إلى نفس إيزابيلا، وشعرت بالحنين لموطنها؛ فهي كالعصفور الذي ابتعدَ عن عُشِّه، وضَلَّ طريق عودته إليه، دبّ في قلبها الشوقُ لحديقة منزلها الكبير، ووجوه الفقراء المبتسمة التي كانت تتردّد عليهم بالثّمار صباحَ مساء، وتعطيهم ما يسدُّ جوعهم، ويذهب لوعة حاجتهم لأيّام وأيام، فما أقسى اجتماعَ الفقر وقلّة يد المعاون على قلب إنسانٍ في آن واحد!

وما إنْ تذكّرت حالها في باطن القَبْو المُظلم، وكيف كان أبواها قاسِيَيْن معها، ولَم تأخذهما عليها شفقة الآباء ولا رحمتهم بها، بل حَرَمَاها من الطّعام والشراب بلا ذنب أو خطيئة؛ تَغَيَّر لونُ وجهها، وشَقَّتْ أنفاسها تنهيدةٌ عاتية بزفرات أحرقت وجدانها الغضَّ على ما لاقته من عقاب مرير على أيدي هذَيْن الأبوَيْن؛ ومن ثَمَّ نظرت إلى الأرض آسفةً على حالها!

في غمرة فِكرها وأنينِ ذكرياتها دلفَ إلى خاطرها سؤالٌ لبرقان، فالتفتت إليه تسائله عن سِرّ التّابوت؟ ومَنْ الذي أحضره إلى قَبْوِ البيتِ الكبير؟

وتشاءُ رحمةُ الله ألّا يُكسر فينا إلّا الأشياءُ
الهشّة، تلك التي تعيقُ وصولَ الخير إلينا..

صفاء الفقي

(٧)
سرُّ التّابوت

هبطَ عليهما الظّلامُ بأوشحته البهيمة، وأسدل ستاره المُعْتم بعد أنْ أفلت آخر خيوط الشّفق الأحمر، وأخذت السّماء تُظهر زينتها وجواهرها؛ فبدأت نجومُها تلمع واحدةً تِلْوَ الأخرى كعقود الدرِّ المنثور.

قال لها: قبل أنْ أجيبك عن سرّ التّابوت سنذهب معًا إلى حيث يمكنك رؤية بلدتك، ومنزلك، ومَنْ ترغبين رؤيتَهم.

كانت عيناها ما زالتْ تصافح وجهَ السّماء المُرَصَّع بجواهرها الحِسَان قبل أن تتبدّل صورتها في لمحة بصر إلى سُقف لأبنيةٍ شاهقةِ الارتفاع، بها زخارفُ وقناديل من ألوان شَتَّى، كأنّ ما حدث صفحةٌ من كتاب قد طُوِيَتْ!

فبعد أنْ كَانَا جالسَيْن أعلى قمّة الجبل يتحدثان؛ أصبَحَا الآن يسيران في ممرٍّ قصرٍ ضخم، بدتْ عليه الفخامة والمهابة البنائيّة التي برزت في حوائطه المُزَيَّنة برسومات أمهر الرّسامين وأحذقهم على الإطلاق، وما أثار دهشتها هو ضوءُ تلك المصابيح الضّخمة المُدلَّاة من السقف، وكأنّها نجوم عملاقة تتلألأ بعد أنْ دنت من السّماء الدنيا لتنير لهما دربهما الذي يسلكانه بخفّة ونشاط.

تلتقي عيونهما على حديثٍ لم يتسَنَّ لأحدهما أنْ يخفي طرفًا منه، فبرقان بحُلّته الجميلة وهيئته البشرية التي ظهر عليها في أوّل مرّة قد حاز إعجابها

بعد أنْ تأنّق في ثوب عصريٍّ استطاع به جذبَ فضولها أكثر، وسرقة اهتمامها ليكمل شغفها به وبعالمه؛ فهي الآتية من الماضي البعيد، لم يَتَسَنَّ لها من قبلُ رؤية مثل تلك الفخامة التي كساها جمال الملبس، وروْعة المكان، وبهاء المنظر، وسلاسة إدراك المُنَى، فهل تكمنُ السّعادة في إدراك وبلوغ المُنَى؟!

كانت تسأل نفسها، ويبدو أنّ شيئًا أكبر من التمنّي، وأعمقَ من الأحاسيس، وأرقى من الهوى؛ أخذ يلوح في أفقِ المشاعر بينهما؛ فإيزابيلا التي لطالما تمنّت أن تراه مرّة أخرى كما ظهر لها في أوّل لقاء جمعهما؛ كانت تخفي في نفسها شيئًا كثيرًا من الرّضا عنه وهو في ثوبه البشريّ وصورته الإنسيَّة المألوفة.

كان قد أخبرها حينما كَانَا أعلى قمّة الجبل أنّ ظهوره على شكل آدميٍّ يُقَلِّصُ من قوّته الخارقة، فدار بخلدها حديثٌ أنساها سعادتها، وعَكَّر صفو نظراتها حينما استذكرت ذلك؛ حيث إنّها كانت تستلهم قوة روحها من شجاعته، وتستمدّ عزيمتها من قوّته، كان حديثها مع نفسها صاخبًا؛ مما جعله يمسك بيدها مطمئنًا لها بعد أن قطع على نفسه عهدًا بألَّا تراه إلّا بهذا الشكل ما دامت تلك رغبتها.

كَانَا يسيران، فتوقّفت عن المسير، ثمّ قالت له في دهشة: كيف يمكن لك أنْ تواجه الجبابرة، وأنت بتلك القوى الهزيلة التي اعتراها الوهن، وأصابها الضعف البشري؟!

أمسك بيدها؛ فأفلتَتْها منه بسرعة، فأسند ظهرَه للحائط، واستقبل وجهها وهو يقول: لن أذهب إلى هناك، ولن أقاتلهم إلّا بعد أن تحصلي

على كامل قوّة الرّماد التي ستوهَب لكِ من أحد حكماء بني الجن، وهي قوّة خارقة، لا تُمنح إلّا للموثوق في ولائهم من بني الإنس؛ حتى يَتَسَنَّى لكِ خَوْض المعركة.

وهنا أدركت إيزابيلا أنّ مُقامها في هذا العالم سيطول إلى أَمَد أبعد من تصوّراتها؛ فأكمَلَا السير إلى أن وَصَلَا إلى غرفةٍ كبيرة، كانت ألوانُ جدرانها مختلفةً عن بقيّة القصر، وما إن دخَلَاها حتى بدت خالية من أيّ أثاث يُذكر، كان يتوسّطها دائرةٌ كبيرة من البلّور الأصفر المُشعّ بلوْن الشمس، تلك الدّائرة محمولة على قوائم أربعة من الخشب العتيق الأسود.

يقتربان من الدّائرة البلّورية إلى أنْ تصبح في مرمى بصرَيْهما؛ تقول له: يا لَلْعجب! بالله ما هذا الشيء؟ هل هذه شمسنا التي تُشرق كلّ صباح فتملأ الدنيا نورًا؟

فضحكَ وأخذ يضرب كفًّا بالأخرى، ثمّ قال: انظري فيها؛ عَلَّكِ ترينَ إن كانت هي أم لا؟!

وبعدَ لحظاتٍ لم تصدّق عينيها؛ فهي الآن ترى في تلك الدّائرة بيتها الكبير بحدائقه المثمرة وأغصانه الوارفة، وبعض أكواخ الفُقراء القريبة من بيتها، وها هي ترى أبوَيْها جالسَيْن في بَهْوِ البيت يبْكيان بحرقة الفقد وألم الفراق، وقد التاعَ كبدُهما فانطَوَيَا برأسيهما يقبّلان أثرها المفقود بين أروقة المنزل ومنافذ البيت، تارة يقفان، وتارة يجلسان على الأرض يصارعان لوعةَ الحزن بالأنين، ويذْرفان عليها دموعَ النّدم حَرَّى، ويتقاسمان الآهات علقمًا وصبرًا.

كان عمّها ماريو واقفًا بجوار والدَيْها يربّت على كتفَيْهما؛ عَلَّه يكفكف شيئًا من دموعهما، أو يخفّف من وطأة ما نزل بهما.

الجميعُ بَدَا عليهم الحزنُ والأسى، ترفع عينها من الدّائرة المتوهجة، ثمّ تنظر إلى برقان بعينَيْن باهتتين اغْروْرقَتا بالدّموع، ثمّ قالت له: كم تمنّيت أنْ أترك بيتي، وأن أبتعدَ عن أهلي لظنّي الدّائم بأنهم لا يرغبون في وجودي بينهم! فما أقسى قلبي، وما أضيق عقلي!؟

ثَمَّ اختلافٌ بيننا؛ فأنا أراهم بعين الشّحّ والتقتير، وهم ينظرون إليّ بعين الإسراف والتبذير، البخل والإسراف أبغضُ ما اجتمع في قلب الإنسان من صفات؛ فهما لا يحقّقان سعادة، ولا يأتيان براحة بال، ولا يبعثان على خير، ولا يصحبان إلّا أراذل الخلق وأقلّهم مروءة.

كلانا لم يدرك أنّ الحبّ الذي يجمعنا أكبرُ وأقوى من النظرة التي تفرقنا، وربما لا يتمكّن المرء من رؤية الجانب المشرق في حياةِ مَن حوله، وهو يغضّ الطّرف عن جوهرهم الذي يخالف مظهرهم.

بيده يدير الدّائرة إلى اليمين، فإذا بإيزابيلا مغشيٌّ عليها بأرض القَبْو، وقد سطع نورٌ عظيم من التابوت القديم؛ فيحملها إلى باطن التابوت، ثمّ تختفي في باطنه من بعد ذلك.

تدخل أمّها لتعطيها بعضَ الطّعام فلا تجدها، وتجد المكان وقد عمَّته الفوضى؛ فتصرخ ويعلو صوتها الذي ينبئ عن فجيعة؛ فيُهْرع إليها خوسيه الذي دخل لتوِّه من باب البيت؛ فتخبره بما حدث، وأنّ إيزابيلا قد اختفى أثرها من القَبْو.

ينتشر الخبرُ في البيت والبلدةِ كانتشار النّار في الهشيم؛ فالجميع حزين، الكلّ يريد أن يلمس طرفًا من خبرها، ولكن- وبعد عناءٍ كبير- يُصاب الجميعُ باليأس، ويخيّم الحزنُ على وجوه كلّ مَن يعرفها.

تبكي إيزابيلا بحرقة؛ لمصابِ أهلها فيها، فيضمّها برقان إلى صدره، وهو يقول: أَعِدُكِ وعدَ الصدقَ بأنني سأعيدُك مرّة أخرى إلى عالمك وموطنك حتّى وإن كلّفني هذا الأمر حياتي!

لقد وقع الاختيارُ عليك يا عزيزتي بعد أنْ تبيَّن لي طهارة نفسك، وسلامة قلبك من الأحقاد والضغائن؛ فرحمتك بالضّعفاء ومواساتك للفقراء والمحتاجين لَهِيَ أسمى الفضائل وأنقاها، وحبّ الخير للغير لا يملكه إلّا قويٌّ، ولا يهبه لَمن حوله إلّا سَخِيٌّ، ولولا هذا الحبّ الكبير الذي يمتلئ به خافقُك، وتموج به أركان نفسك؛ لما تمكّنت من قراءتك في إحدى ترانيم الخلاص التي دَرَّسَنِي إيّاها معلّمي قبل آلاف السنين.

وممّا أخبرني به: أنّني سأجدك في بلادٍ يقال لها "الأندلس"، وها أنا قد وجدتك، وليست ثمّة فتاة أخرى في بلادك تحمل تلك الصّفات، وتتمتّع بهذه الخِلال. وأخذ يطوّقها بحلقاتٍ من الدّخان الأبيض، كانت تلك هي "تعويذة النّور" التي ستمكّنها من اكتساب جميع القوى دون أنْ يلحق بها ضرر، أو يصيب بنْيَتها البشرية أيّ مكروه.

قال لها: إنّ قدرك هو مدُّ يد العون للغير؛ لِمَا تحملينه في قلبك من قوّة نادرة، ومَلَكَات غير عادية، والتي لا يحتويها غيرُ قلبك من بَنِي الإنسان في هذا الزمان، وبين أولئك القوم.

- مُعَلِّمِي العجوز أخبرني أنّه لن تكتمل قوّتك الأولى إلّا بعد مواجهتك مع قوى تفوق خيالك وتصورك، وتجتازين بها حاجزَ الخوف، وقد فعلتِ حينما رأيتِني أوّل مرّة على هيئتي الحقيقية، ولم تأخذك الرّهبة مني مأخذ الجزع الذي يفضي إلى النّفور، كما هي عادة تصرُّف البشر في مثل تلك المواقف التي لا إِلْفَ لهم بها، ولكن ما أدهشني حقًّا هو ثباتُ وتماسك جوهرك الذي بَدَا لي صلبًا قويًّا رغم هشاشتك الخارجية.

قالت: ربّما كان في الخوف نجاةٌ لحياتنا، نحن البشر نخشى الضّعف وننكره، وهو أصل من أصول بنيتنا، ونرفض أن نشاهد أنفسنا من الدّاخل، ونغضب إذا لم يشعرْ بنا غيرنا! وما كان هذا ليحدث إلّا إذا اطّلع كلّ مِنّا على خفايا نفس أخيه، فنظرَ في أفراحه ليفرح معه، واستمع إلى أنين قلبه ليواسيه في محنته.

أمّا التابوت فقدْ أخذه جدّك "أبراهام" رهنًا من أحد السّحرة الفقراء، والذي لم يَرُقْ له معاملته القاسية له بعد أنْ تأخّر في تسديد ما عليه من أموال قد اقترضها منه؛ فقام بإحاطة التّابوت بتعويذة تحصّنه من أن يستخدمه غيره، وجعلني حارسًا عليه، وقد مضى زمنٌ ليس بالقليل على تلك التعويذة، وهذا ما جعلها أكثر قوّة وأكثر نفاذًا، وأعطاني حقّ التّصرف بها فيما ينفع ولا يضرّ؛ فإيذاء بني البشر ليس لي هديًا ولا هدفًا، ولا يطمع في إلحاق النكبات بغيره إلّا من طُمِسَت بصيرته، وانتكست فطرته، وغلبت عليه شقْوته، ونزلت القسوةُ بقلبه نزولَ اللئام،

ولقد نبذني قومي لأنني أنكرتُ عليهم عداواتهم لِبَنِي الإنسان، وكَمْ خُضتُ من معارك ضدّهم لكفِّ شرورهم، ولكن في نهاية الأمر كما ترين؛ فأنا معزول ومطرودٌ ومحروم من موطني، وهذا شأنُ المجابهين للباطل في كلّ زمان ومكان.

لهنيهةٍ سادَ الصمتُ أرجاء المكان، وخفتَ الضّوء المنبعث من الدائرة؛ فإيزابيلا بدأ يهاجمها طيفُ النوم بعد أن أُثقلت رأسُها من عجائب ما رأت، وهولِ ما سمعت. تمدّدت أرضًا ولسانُ حالها: متى سينتهي هذا الحلم؟!

بيدَيْن باردتَيْن، وعينَيْن ناعستَيْن، وجسدٍ أنهكه التّعب، وألَمَّ به النَّصَب، إذا بها تستسلم لسكون النّوم بعد أن سَلب منها سلطان يقظتها، واستحوذَ على كامل إرادتها، سكنت حركة جفنيْها، وهدأت أنفاسها، وغفت على جناح من الخوفِ والأرق. قد يحصّل المكلوم في نومه ما فقدَه في يقظته، ويحقّق ما عجز عنه حال صحْوه، ويجد فيه الأمان الذي يبعث فيه روحَ الحياة من جديد.

كطائر كسير أصابه اليُتْم، وألَمَّت به المِحَن، يحملها برقانُ بين ذراعيه، ويختفي فيٍ غياهب ظلمة قصره الذي أحاطتْ به عيون العمالقة من جنود الجبابرة، الذين أتوا لأسْرِ تلك الفتاة والنَّيْل منها بعد أنْ نما إلى علمهم خطر وجودها في عالمهم؛ فهي بقوّتها البشرية تهدِّد عرشهم، وتبدِّد أمنهم واستقرارهم! فالتخلّص منها قبل اكتمال قوّتها بات أمرًا حتميًّا في نظرهم، فإمّا أنْ تحيا، وإمّا أن يحيوا.

لنْ تفنى إرادةٌ بُنيت على أساسٍ من التّقى والهدى،

ولن تهنأ نفسٌ أضاعتْ في سبيل الغيّ كرامتَها...

صفاء الفقي

(٨)

الحزنُ في البيت الكبير

خَيَّم الحزنُ على جميع من بالبيت، حتى إن جدران البيت لو نطقت لأجهشت بالبكاء على فقدان إيزابيلا، وإنها لشاهدةٌ على عمر عصفورةِ المنزل التي لطالما غَرَّدت على شجرة التّوت بأجمل الأشعار، وأعذب الألحان.

وكعادةِ المرء المتأصّلة فيه منذ أنْ دَبَّت في نفسه روحُ التملك والحيازة فما ألفته عينُ نفسه القاصرة لا تبصره عينُ رأسه المتحسِّسة لكلّ المنافع والمضارّ، وربما أصابها عمى اللامبالاة، ولا يدرك المرءُ كمْ من الكنوز ضَيَّع إلّا بعد انْسحابها من ملكه، وانتقالها إلى الخفاء، أو إلى الزّوال الأسيف، وكم مِن نِعَم أنكرت معروفها النفس، ثمّ ذابت حنقًا وأسفًا على فقدانها وخسارتها، ولكنْ هل سيعيد الندمُ ما ألقاه قوس التّفريط من سهام هادرة؟!

ها هو خوسيه العجوز مُمَدَّدٌ في سرير إيزابيلا، ينوحُ على ابنته المفقودة، ويتذكّر كيف كان يقسو عليها؛ فيقول لنفسه: لقد كانت تعطفُ على الجميع، حتّى الحيوانات تعترف لكِ بالفضل يا صغيرتي، نعم، آهٍ يا حبيبتي! لقد كنتِ هدية ثمينة من الربِّ، ونحن لم نكنْ أهلًا لوجودكِ بيننا، ولا نستحقّكِ. تدخل عليه زوجته فتشفق عليه، وإنها لأشدّ حاجة إلى مَن يشفق عليها.

تربّت على كتفه، وعينُها على نافذة الغرفة التي كانت تطلُّ منها إيزابيلا على الحديقة، وتخالها واقفة تتأهب للقفز على غصن شجرة التّوت الممتد كجناح الطائر الضّخم تحت النافذة، ثمّ تقول: كَمْ اشتقتُ إليكِ يا صغيرتي! تنظر في ساحة الغرفة فتجد بعضَ ثمار التّفاح المتناثرة هنا وهناك، انحنت لتجمع الثّمار، وتُقبِّل أثرَ ابنتها الباقية على التفاحات التي كانت تضمُّها إلى صدرها بألف آهٍ تمزِّق حشاها، والآه تشقُّ أنفاسها، فهي دخان لنيرانٍ لا تخمد، ولهيب لحرقة مستعرة، وكأنّها تجمع بقايا الخير الذي تناثر فيقلب ابنتها حبًّا، وسقته بالنّور والعطاء.

تقول ماري: ليس على هذه البسيطة مَنْ هي أتعسُ منّي، لقد مضت الأيام على غيابكِ يا عصفورتي، ولا أعلم هل سأضمّكِ إليَّ ثانية أم ضاقت بنا سبلُ الدنيا، ولن تُبصرك عيني التي احترقت على فقدانك حزنًا وأسًى؟

قال خوسيه بصوتٍ أسيف حزين بعد أنِ انتبه واعتدل من رُقاده: كيف نسيت أمر التّابوت الملعون؟ لقد حذَّرني منه والدي قبل موته، وأمرني بحرقه، ولكنْ ما أتعسني! لقد غفلت عنه حتّى أخذ ابنتي بلعنته. تشهق السيدة ماري، ثمّ تضرب المنضدةَ التي كانت تتكئ عليها بكلتا يديها، وتقول له: لماذا لم تخبرني بأمر هذا التّابوت؟ لماذا جعلتني أقذفُ بابنتي في غياهب المجهول؟ أيّ عذاب سيمطرنا به ربُّ السّماء يا خوسيه؟ ثمّ تعود للبكاء والعويل من جديد.

يدخل إلى ساحة البيت الكبير بعضُ وجهاء البلدة، فيطلبون الأبوَيْن المكلومَيْن لمواساتهما في مصابهما، وكلّ من بالبلدة في تلك الأيام مكلوم؛

فهذه الفتاةُ برحمتها وعطفها قد امتلأتِ النّفوس بها حبًّا وتعلقًّا، فهي في تعداد البشر واحدة لا تملك إلّا ذاتها، وفي تعداد القلوب فهي أغنى الناس بما حازته من نفوسهم، وبما خلَّفته من فراغ وفقدٍ مؤلم في قلوبهم، لن يعينهم عليه إلّا رحيم مثلها، أو كريمٌ يرجو الله، وهذا ممّا يضنُّ الزمان به.

ينزل خوسيه إلى ضيوفه شاحبَ الوجه، وكأنه قد كبر عمرًا آخرَ على عمره؛ فلا تكاد تحمله قدماه، وقف مستندًا على الدّرج، وهو يحاول التماسك؛ فيكشفه ضعفُه، ويعرِّيه وهنه؛ فيسقط أرضًا مغشيًّا عليه، فكم من نفوس خاوية وقلوبٍ هشَّة كشفتها شواهدُ المواقف، وجرَّدتها من ادّعاءاتها الكاذبة!

يسرع إليه ماريو، ويحملُه إلى غرفته القريبة من غرفة ابنته المفقودة، دلف من الباب، ثمّ وضع خوسيه على سريره، وبينما هو يحاول سحبَ الأغطية ليدثِّر بها أخاه الذي افترسته رعدة الحمى الشديدة؛ بيدَيْن باردتَيْن يمسك خوسيه بيده، وهو يقول له: سامحني يا أخي، لطالما قسوتُ عليكَ، وأرهقتكَ في أعمال الزراعة والصيانة؛ فقد كنت أحسب أنّني بهذا الحرص أبني لكم المستقبلَ الذي تطمحون إليه وترجونه، لقد أوصاني أبي بالجد والاجتهاد؛ فسرتُ على دربه، واتّخذت طريقته في كسب المال، ولم أفكِّر يومًا في مَنْ يعيشون حولي، لم أسمع لكم، ولم يَدُرْ في خلدي يومًا أنّ في بعض وصايا الأموات موتًا آخرَ للأحياء، ولكن أعدُكَ يا أخي أنني من اليوم فصاعدًا لن أقف أمام أحلامك وطموحاتك، لتفعل ما تريد، ولتبذل حياتك فيما تستطيع فعله من برٍّ وأعمال خير ومعاونة لمن هُم دونك؛

ففي ذلك تكمنُ الحياة الهانئة، ولتعلم يا أخي أنّ الدنيا ستكون أقلّ من أن تجتمع في جيب الحرص، وستكون أضيق حينما نحدها بالمال فقط، لن يستطيع المال وحده إعادةَ ما سُلِبَ منا من حبّ أو دفء أو أمن أو سعادة!

نظر ماريو لأخيه مشدوهًا تعتريه حالةٌ من الذّهول الشديد، وخُيِّل له لو أنّ أحدًا غير أخيه خوسيه يتحدث إليه، طال حديث خوسيه إلى أنْ أخذته سِنَة من النوم.

كمْ من المآسي غيَّرت من طبائع الناس، وكأنها أداة تهذيب روحيّة خُلقت لتخاطب جوهر فطرتهم اللَّيِّن، وتصارع ظلمة العادات المترسّخة فيهم كالجبال الرواسي، فطبيعةُ البشر تقسو عند إلْفِ النعمة، والحوادث لا يسهل على النفس تقبُّلها إلّا بعد الصّدمة الكبرى التي تهزُّ أبنيةَ جوهر الناس؛ فتخرج من كوامنهم كلّ المعادن؛ فتراهم أمام المصائب إمَّا يلمعون كبريق الذهب، وإمّا يصدؤون كقطع الحديد، فالصنفُ الأوّل لا تغيره الحوادث، بل على إثرها تزداد قناعتهم، وتسطعُ أنوار التّسليم بمبادئهم الأولى؛ فهم لا يبصرون غير الحقيقة الواحدة التي تأبى إلّا أن يكون لها وجه واحد، فهي كالشّمس في كبد السّماء، لا يشوبها طمع ولا أثرة ولا حقد أسود، ولا قوّة تعلو فوق الحق ما دامت السموات والأرض.

ماريو لا يكاد يصدّق ما سمعته أذناه منذ قليل، من جديد تحمله قدماه إلى خارج البيت، يتّجه نحو حديقة المنزل الأمامية، فيجلس بالقرب من إحدى شجرات الحديقة، ويسند ظهره ورأسه إليها.

كان على جناح من الرّهبة يُحلّق في غمرة من الفكر الذي تتصارع فيه علامات التعجب والدهشة والحيرة بعد حديث أخيه إليه، ولكنّه انتبه عندما طرق سمعه صوت صلصلةِ خيول قادمة من بعيد، مَدَّ عينيه في الأفق؛ فوقعت على عربة قائد الشّرطة لوبيل تتقدّم نحوه، وقد استقبلت البيت الكبير، لاحت برأسه فكرة وخطّة محكمة؛ ليتخلص بها من صهره المستقبليّ الذي فرضه عليه من ذي قبل أخوه خوسيه، فقام وهو يتمتم بهذه الكلمات: اليوم سأتحرّر منه ومن ابنته هذا اللّئيم الظالم. عقد العزم بينه وبين نفسه أن يتعمّد إغضاب قائد الشّرطة لوبيل؛ حتى لا يوافق عليه كزوج لابنته.

توقّفت العربة أمام البيت، نزل منها قائد الشّرطة لوبيل، ثمّ مَدَّ يده ليلتقط يدَ فتاة هي آية من آيات الحسن والجمال، ماريو لم يصدّق ما رأته عيناه، ففركهما بكلتا يديه، وهو يقول: تُرى مَن تكون تلك الجميلة؟! نزل قائد الشّرطة، ثمّ التفت ناحية ماريو الذي وقف مشدوهًا شاخصًا في مكانه! قال له: مساء الخير يا ماريو، لماذا تبدوا متصلبًا في مكانك هكذا؟ هذه ابنتي فيولا.

عذرًا سيدي، قالها ماريو بعد أنْ حيّاهم بطريقة لبقةٍ ومهذبة، استطاع من خلالها أنْ يحوز رضا قائد الشرطة وابنته الحسناء، اصطحبهما إلى داخل البيت؛ ومن ثمّ أجلسهما بغرفةٍ أُعدّت لاستقبال كبار القوم من وجهاء وحكماء البلدة.

كان قائد الشّرطة يُقلب بصره مُمعنًا النّظر في كلّ شيء تقع عليه عينه من أساس ومتاع وجدران، ولا يجد غضاضةً في فعل ذلك،

فنفسه المُلتاعة بالطّمع قد سَوَّلَت له من قبل ذلك، وكلّ نفس عفيفة تغضُّ الطرف فلا تجرح عورة، ولا تقع إلّا على خير.

أخذ الجميعُ يتبادلون أطراف الحديث عن الفتاةِ المفقودة منذ عدّة أيام ولم تظهر إلى الآن، وكأنّ ماريو قد تناسى فظاظة خطّته التي توعد قائد الشّرطة بها من قبل، ويبدو أنّ رؤيته للفتاة الجميلة جعلته يعدل عن قراره في آخر لحظة.

تدخل عليهم السيدة ماريخوسيه، وبدت ملامحها مخضّبة بأوشحةٍ من الحزن والأسى الذي خالط صفرة وجهها الشّاحب بكلّ ألوان الأسف؛ فاعتلى جبينها كغيمةٍ سوداء خطّت أثر نهريْن أسودين على وجنَتَيِ المرأة الثّكلى، بكلمات باردة طمأنها قائد الشّرطة قائلًا: لا تقلقي يا سيدتي، نحن نبذل كلّ الجهود، وقريبًا سنعثر على إيزابيلا.

نظرتْ إليه وهي تريد تصديقه، ولكنّها كانت تعلم أنها محضُ مواساة، قامت وهي تبتلع غصتها، ثمّ قالت: أشكرك على جهودك التي بذلتها، ومواساتك سيدي قائد الشّرطة، ولكنّ ابنتي ذهبت بغير عودة.

- هل استسلمتِ لليأس سيدتي؟ سألتها فيولا التي انسلّت من صمتها وسكونها، لتبعث فيها أملًا جديدًا، ورئة أخرى للحياة.

كانت السّيدة ماري تعلم أنّ قائد الشّرطة لن يصدّقها إنْ أخبرته بأمر التّابوت الذي ابتلع ابنتها بلعناته، وربما رماها بالجنون، أو اتّهمها بالهرطقة، وهي جريمة عقوبتُها الإعدام في هذا الزمان؛ فآثرت أن تُبقي على غصّتها في تكتُّم وحذر شديديْن، فلا أحد يحيطُ بعذابها غير ضلوعها

التي حوتْ بين جنبيها تَنُّورًا من الألم، وقوده حسرات تتوالى، ودموعٌ لا تفتر، ولوعاتٌ لا تهدأ، كان عذابها مقيمًا بين جوانحها إقامة ثقيلة يضفي على ملامحها ألوانًا من الخوف واليأس وعدم الاكتراث، وهكذا تتجمّد المشاعر عندما تتوالى خيبات الأمل، ويفقد القلب مبتغاه من عالم حُطمت فيه كلّ أروقة الأمان النفسيّ، والسلام الداخليّ.

وقف ماريو مبشرًا إيّاها: ستعود إيزابيلا، صدّقيني، فهي فتاة صالحة، والجميعُ يعلم ذلك، وسيحفظها الرب لنا جميعًا؛ فمثلها لا يُخشى عليه، فهي ربيبةُ القيم والمبادئ الحسنة.

تبكي من حديثه السيدةُ ماري بحرقةٍ شديدة حتى كادَ يشتمَّ الجالسون رائحةَ دخان كبدها وهو يصطلي بنار الفقد الذي أوهن قواها، وهدمَ عزيمتها، وزلزل كيانها حتّى بدل أحوالها، وغيّر مصائرها ونظرتها للحياة كلها، فما كانت تراه في السّابق حسنًا لا تبصر اليوم ما هو أسوأ منه، وما عضّت أنامل الغيظ كمدًا إلّا بعد فوات الأوان، فهي اليوم ليست مرغمة على إكمال طريق ابنتها الذي سلكته في إطعام الجوعى وإغاثة الملهوفين من الفقراء والمُعْوزين، فهي لِم تذقْ للسعادة طعمًا إلّا على أبواب هؤلاء الضّعفاء، كانت تَتلمّس خيطًا من حياة ابنتها في عين كلّ واحد منهم، كانت تمدُّ له يدَ العون بطعام أو بشراب أو بكساء، وربّما بابتسامة تذيب بها الهموم من قلوبهم، وتطمئنهم بأنّ عالمهم ما زال بخير.

قامت ابنة قائد الشّرطة من على كرسيها، ولَم تستطع مقاومة سيل الدموع المنساب من السيدة ماري؛ فأقبلت عليها تضمّها وتواسيها،

فما من شيء تستطيع فعله أكثر من أنْ تبذلَ عطفها ورحمتها على تلك المرأة المسكينة البائسة، فبادلتها السّيدة عناقًا طويلًا، وكأنّها تضمُّ ابنتها المفقودة، وكانت ابنة قائد الشّرطة تشبه إيزابيلا جسدًا وطولًا، وهذا ما أثار بكاء المرأة أكثر، يدخل عليهم في مجلسهم خوسيه، وهو يتململ لا تكادُ تحمله قدماه؛ فيهرع إليه أخوه يسانده؛ حتى يجلسه بجوار قائد الشّرطة لوبيل الذي لم يخفِ علامات الامتعاض والكبر التي بدتْ جليّة على ملامحه القاسية، والتي لم يلحظْها بقوّة غير فيولا؛ فهي تعلم لمَ تغيّر وجه أبيها، وقد شعر بذلك ماريو الذي فَضَّل أن يتغافل عن ردّةَ فعل قائد الشرطة المتكبر؛ فهو ثاقب الفراسة قويّ الملاحظة.

بيَدٍ أضعفها المرض، وأنهكها جمعُ المال تناول خوسيه يدَ زوجته وهو يقولُ: كفى بكاءً؛ فلن تعود ابنتك بكلّ تلك النّياحة، ولا بهذا العويل. فتكفكف دموعها، ثمّ تخرج من الغرفة تتبعها عيونُ الحاضرين، وبعد قليل يخرج قائد الشّرطة وابنته من بيت خوسيه بعد أنْ مَكَثَا وقتًا ليس بالقليل، تَحَدَّثَا فيه عن اختفاء إيزابيلا، والتّحقيقات الجارية لفكّ هذا اللغز المُعضل.

كمِ انتظار مرّ على قلوب الخائفين من بسطةِ يدِ التّؤدة على ضمائرهَم، فأورثتهم صبرًا، وأبدلت خوفَهم أمنًا، فالانتظار لا يكسر أحدًا، والعجلةُ لا تصنعُ مجدَا...

صفاء الفقي

(٩)

إيزابيلا في الأرض المُحرّمة

بعد ليلٍ طويل تستيقظ إيزابيلا من نومها لتجدَ نفسها مستلقيةً على عشب أخضٍر محاطة بالأشجار الكثيفة العالية، الشّمس تُرسل أشعتَها الأولى على صفحة الأرض، وها هي الطيور تُغرّد بأصواتها الجميلة أغنية الصباح الوليد، تراقص الأغصان، وتداعب الأوراق؛ فترسلُ بعضًا من حبات النّدى إلى أسفل، والتي أخذت تتقاطر على وجهها كحبّات اللؤلؤ، أخذت تمسحُه من وجهها كما تمسح النّوم من أجفان عينيها.

لم تكنْ تُدرك خطورة وجودها في هذا المكان الذي لم تسبرْ أغواره، ولم تختبر مثل جماله الخلاب من قبل.

وقفتْ على قدميها، وما إنْ خطت أولى خطواتها حتّى راعها صوتٌ لم تستطع أذناها استيعابه لضخامته التي جلبت الرّعب لقلبها، كان الصوتُ آتيًا من خلف المجهول، من عمق الغابة، وكان يقترب الصوتُ منها شيئًا فشيئًا، حتّى امتلأت نفسها بالخوف الشّديد، وأُصيبت بالفزع لأوّل مرّة منذ دلفت إلى هذا العالم العجيب؛ فأسرعت الفتاة لتتسلّق شجرة كبيرة كانت بالقرب منها، ويبدو أنّها نسيت أمر الجناحين من خلفها، فأمسكت بالغصون وتسلقتها واحدةً بعد أخرى، كما كانت تفعل بشجرةِ التّوت في حديقة بيتها، واصلت التسلُّق حتى بلغت مكانًا آمنًا ومرتفعًا من الشجرة.

نظرتْ للأعلى، ولكنْ يا للهول! ما هذا الطّائر العملاق!لم تكنْ تَعِي حجمَ الخطر المُحدق بها من كلّ جانب، فشياطين الجبابرة قد أرسلوا وفدًا من عمالقتهم لجلبها إلى أرضهم؛ تمهيدًا لقتلها بعد أنْ علموا بأمرها، وبعد أن تأكد لهم أنّ تلك الفتاة تُمثِّل تهديدًا لأمن مُلكهم، ونذير شؤم لزوال حكمهم.

من شدّة فزعها توشك أنْ تسقط من فوق الشّجرة، ولكنّ جناحيها أخَذَا يخفقان بشدّة، تطير عاليًا فيُلحق الطّائر العملاق خلفها، وينعق بصوتٍ مرعب، ثمّ يحدثها قائلًا: "أَلَسْتِ فتاة البشر التي أتت من الماضي القديم؟" فهمت مقصوده، ولَم تجبه لأنّها رأت في عينَيْ هذا الكائن كلّ صور الشّرور، وجميع ألوان البشاعة!

كان سريعًا وقويًّا جدًّا، استطاع بسهولة أنْ يمسكها بمخالبه الكبيرة، ثمّ طار بها عاليًا، وابتعد عن الغابة، حتى بلغ أعلى قمّة جبل شاهق، فوضعها داخل قفص حديديٍّ، ثمّ أحكم غلقه عليها، وأوصد أقفاله بقوّة، كَمْ هي مسكينة تلك الفتاة!

لم تكدْ تلتقط أنفاسها من رؤية أهلها الذين أصابهم الحزن بفقدها، وذهب بهم الأسى كلّ مذهب، وما فتأت تنسى مصابها الجلل حتّى هَبَّ عليها ليلٌ وطيس من الرّعب والفزع بمطاردة هذا الوحش البغيض وأسره لها.

كانت تُصّعد نظرها في هذا الوحش شذرًا، وتقول في نفسها: يبدو أنّ الجبابرة قد نالوا من برقان. رفعت رأسَها نحو السّماء، وقالت:

لينقذني الربُّ من هذه الأهوال التي أظلمت منها جنباتُ نفسي، وأغلقت دونها نوافذ عقلي، وقلّت في تدابيرها حيلتي، ألا أيّتها السّماء البعيدة أمطري على قلبي السّكينة والقرار.

كان الوحشُ بالقرب منها يطوف من حول قفصها، وهدير أجنحته الضّخمة كاد تتصدّع له قمّة الجبل، بقي على تلك الحال ساعة من نهار.

لمعت في ذاكرتها مشاهدُ تلك القمم التي كانت تُطلّ على الأرض المُحرّمة، وأيقنت أنها في مأزق بالغ الخطورة، وعليها أن تفرّ بنفسها، وإلّا فهي في مرمى حقد الجبابرة، وسوف تطولها نار انتقامهم وبغيهم، ولكن كيف؟ وإلى أين ستذهب إن استطاعت تحرير نفسها؟!

بالقرب من القضبان الحديدية وقفَ الوحشُ العملاق متأملًا في ملامحها الصّغيرة المشتعلة بالحياة والجمال والأمل، حدّثته نفسه بقتلها كما طُلب منه، ولكنّه لم يستطعْ إلى ذلك سبيلًا؛ بفضل الهالة الضّوئية التي تحيط بها من كلّ جانب، فيطير العملاق بعيدًا، ويختفي أثره في وسط الضباب الكثيف الذي كان يُخَيِّم على قمم الجبال المجاورة، ويغطي الأفقَ القريب والبعيد؛ فتجد الفرصة سانحةً لفكّ أقفال القفص، فتحاول وتسرع في محاولاتها، ولكن دون جدوى!

أصيبت بخيبة أملٍ كبيرة بعد أنْ وقفت على حقيقة ضعفها أمام أوّل عائق تواجهه بمفردها بعد أن أصبحت جزءًا من هذا العالمِ، مرّة بعد أخرى كانت تجذب الأصفاد وتحرِّكها، ولكن لا تنجح في فكِّ أيّ منها؛ فهي متصلة ببعضها البعض، ومتناسقة الإحكام بكلّ أجزاء محبسها،

كانت في عنقها قلادة بدأت تتلألأ بوهج من النّور السّاطع، ثمّ بدأ يصدر منها صوت هي تعرفه جيدًا، كما تألف النفس جميع جوارحها، أملى عليها بعض الكلمات التي جهلت ملفوظها ومعناها، كانت هذه تعويذة لفكِّ أغلال حريتها القابعة خلف قضبان الجبابرة، وبالفعل تمكّنت من الخروج، ولاذت بالفرار.

إيزابيلا، عليك الآن أنْ تطيري وتبتعدي عن تلك الأرض، وعن عيون العمالقة. كان الصّوت الصادر من قلادتها بمنزلة عينٍ ثالثة لها؛ فهو يحدّد لها وجهتها، ويصف لها طريقَ نجاتها وسبيل سلامتهاً.

كعصفور صغير لأوّل مرّةٍ يلقي أحمال حياته على جناحيه باحثًا عن سبيل الحياة في أروقة وزوايا الزمن، تهبط على حافّة جبل لتلتقط أنفاسها، بعد أنْ أبصرت السّماء وقد انعقدت فيها الغيوم، وتكاثفت في ساحة جوّها السّحب، لم تكن تُخفي حبّها الشّديد لهذا المنظر الذي كان يأسر وجدانها بأحاديث الحنين والشوق لمراتع صباها وشبابها.

ومرّة أخرى تتوهّج القلادة بالضوء، ولكن هذه المرّة يخرج منها الضّوء أكثر قوة ووضوحًا من المرّة السابقة، فقد شعرت بقوّتها وهي تهتزّ وتتحرّك، ويتشكَّل منها جسم ضبابيٌّ مُبهم لإنسانٍ غير مكتمل الأركان مجهول الملامح، رويدًا رويدًا تكتمل الصّورة حتى يمثل أمامها؛ فيتلاشى الضوء، ويتّضح شكل برقان الذي بدا شاحب الوجه أسيف الملامح، تغزوه الحسرة، تبتدره باستفهامٍ وتعجب: ماذا حدث لكَ؟ ولماذا تبدو حزينًا كئيبًا هكذا؟

ينظرُ إلى عينيها قائلًا: ليت الفلسفاتِ الكونيةَ تسعفني بشيء لأفهمك كلّ ما يحدث يا عزيزتي، وليت أساطير الأقدمين تعينني فيما أودّ أن أقوله لك، فإنّ الغابة المقدسة، والتي حبسها ليل شتاء الجبابرة لم تأذن الأقدار لتنبت الحرية في موطني بحلول الرّبيع اللاحق، أنا وأنت بالكاد نحافظ على أنفاس وجودنا ووجودها، فمن شدّة الظلم المُحدق بها يكاد صوتُ أنينها يخنق ذرّات الكون بعد أنْ نسيت أشجارها لون الشّمس، وقنعت أغصانها الذابلة بشعاع القمر الخجول الذي أكسبها من حسن الهدوء طيفًا، وألقى عليها الليل من سدوله الموحشة قسطًا؛ فلا يأنس بجوّها وجوارها إلّا مَن خلعَ قلبه عند باب الحزن الكبير.

قالت له: يا لحكمتك!كنت أحسبني أجيد الفلسفة، ولكن بعد هذه الكلمات أنا لا أظنّني أفقه شيئًا بها أبدًا، أتعلم أنّني كلّما سمعتك تتحدّث عن موطنك بهذا الحبّ أشتاق كثيرًا إلى بلدتي وموطني في مُرْسِيَة!

فلطالما كانت أوطاننا قلبًا كبيرًا ينبض بالآمال العظيمة والأحلام الكبيرة، فنظرةٌ واحدة إلى عين الوطن تبعث في نفس المرء منَّا بالتّفاؤل والحبّ والسّعادة التي لا يقابلها شرط مُغرض، ولا تحدوها منفعة قاصرة، ومَن أمعن النظر في وطنه رأى الجمال شائعًا في كلّ ذرّاته، يحيط بكلّ دقائقه، معنيًّا بكلّ خصائصه.

يبتسم برقان، ثمّ يقول لها: لقد منحك الله قلبًا بصيرًا وعقلًا فريدًا يا إيزابيلا، فتلمع في عينه مشاعر دافئة، وهي لم تُنكرها؛ فقد بادلته بنفس إحساسه ومشاعره؛ ما جعلها تستردّ بعض أنفاسها المسلوبة منها بعد

فرارها من الجبابرة ونجاتها على يديه، كلاهما يكتم حديثًا بداخله، ويودُّ لو أمكنه البوح، ولكنّهما يتجمّلان بالصبر، ويتحليان بالقيم، بعد أنْ نالا خُلقًا رفيعًا ومثلًا متفرّدًا في إيثار المواقف، وتحمل المسئولية الملقاة على عاتقيهما، وقد ارتأى لهما التّسليم للقدر، فمستقبلهم به من مجاهل الغيب ما يجعلهم يلوذان بالصّمت، ويفرّان من دقائق الحديث وتفاصيله، ولكن نظراتهما خذلت هذا الكتمان، ووشتْ بما أضمراه، وأفشت بمحبّتهما التي استقرّت في أعماق أفئدتهما، وراحت تستشري في نفسيهما بمشاعر فيّاضة، فكلاهما يفتدي صاحبه بحياته، ولكنْ عليهما الإبقاء على تلك المشاعر طَيَّ الكتمان؛ فالواقع يعاند كلّ صور الألفة التي نشأت بينهما.

ليسَ ثمّة عيوب في أنْ نُبقي على ملامح قلوبنا كما هي...

أتعلمون ما هي السّعادة الحقّة؟

أنْ يشيب جسدُ المرء وقلبُه مازال ينبض بنقاءِ وصفاءِ يوم مولده.

صفاء الفقي

(١٠)
اعترافٌ برقان

أمطرتِ السّماء بغزارة فوق رأسيهما، فجذبها برقان من يدها، وانطلقا سريعًا نحو مغارة كانت في صدر الجبل الذي كان شاهدًا على التحام نفسيْهما الأوّل.

توقّف هطول المطر؛ فأطلّت إيزابيلا برأسها تعانق النّسيم بزفراتٍ استعر منها حرَّ فؤادها، كانت الشمس قد أشرقتْ من خلف الغيوم كعروس تُزفّ تحت قوس المطر، فهي في كبد السّماء مزهوَّة بأشعّتها الدافئة وتوهّجها الوليد.

لم يكونَا كما دلفَا؛ فقد انطفأ نورُ البهجة من وجه الفتاة، وأصبحت شاحبةَ الوجه، وكأنها قد كبرت في العمر فجأة، يبدو أنها تعاني من أمر آلمها، لقد اختلّ توازنها، وها هي يُغشى عليها عند باب المغارة؛ فيحملها ويبتعد حتى يبتلعه السّحاب.

في صبيحة اليوم التّالي تستيقظ من نومها لتجد نفسَها بلا أجنحة على سرير ملكيٍّ كبير جدًّا، تتحسس وسادتها المحشوَّة بالرّيش الناعم، كان يداعب فكرَها إحساسٌ دخيل على مشاعرها، لم تستطع كبحَ زمام عقلها عن هذا الذي استوطن قلبها، وكأنّها في ساحة الوهم تعاني من ألم الحقيقة المرّة.

أحدُهم يطرق بابَ الغرفة، ثمّ يدخل دون أن تأذن له، يرتدي ثيابًا غريبة مُلَثَّماً، ويدفع أمامه عربة صغيرة، عليها صنوفٌ مختلفٌ ألوانُها من الطّعام والشراب، يضعها بالقرب من سريرها، ثمّ يدير ظهره بخفّة، ويسرع نحو الباب، أزعجها أنّه لم يُلقِ عليها التّحية، وقبل أن يخرج من الغرفة لحقت به تسأله: مَن أنت؟! هجَمت عليه بكلّ قوتها، وأرادت أن تميط اللّثام عن وجهه، في بادئ الأمر حاول أن يقاومها دون أنْ يؤذيها، ولكنها كانت عازمة على إظهار هويّته، وإظهار حقيقته؛ فكان على خلاف ما توقّعت، وما إنْ أماطت اللثام عن وجهه حتى أدركت أنّه مجرّد خادم مسخ من المسوخ القائمين على خدمة برقان؛ فدفعته إلى الخارج بقوّة، ومن ثمّ أحكمت غلقه من خلفه.

ومن جديد عادت إلى شرودِها البعيد، ترتقب موعد الفِكاك من هذا السّجن الكبير، بخطوات باردة تقترب من شُرفتها، وتنظر إلى السّماء كعادتها، وقد اجتاحها شعورٌ بالوحدة التي بدّدت في نفسها كلّ سحب الأمل في العودة إلى حياتها التي اعتادتْ عليها بكلّ مغامراتها الخيالية، وكلّ رتابتها الباعثة على الملل؛ فحياة مع بعض الخيال حياة ممتعة، ولكنْ عندما يتحوّل العالم بأسره إلى أحداث خيالية فهذا ما لم تحسب له حسابه الذي يمكنها من العيش فيه بسلام وتأقلم، وتحيا فيه بوئام، فعقلها لم يَتَسَنَّ له أنْ يستوعب؛ كونها لم تبتعدْ عن وطنها مكانًا فحسب، بل زمانًا بعيداً جدًّا.

أطلّ برقان برأسه من النّافذة، وسَلَّمَ عليها؛ فأدارتْ له ظهرها وقلبها، كاد ينخلع من مكانه من سرعة خفقاته، تناضل من أجل نفسها الأبية.

فقال لها- ممازحًا-: أيّتها الفتاة، لقد أتيت بكِ من القرن الثّامن عشر الميلادي إلى قرون متقدمة جدًّا، وإلى حِقبةٍ زمنية هي غاية في البُعد والتّناهي، فمتى ستدركين أنّك تعيشين في عصور لم يَتَسَنَّ لأحد من زمانك أن يعيش فيها؟!

لقد تغيّر شكلُ الأرض كثيرًا في القرون الثّلاثة اللاحقة لقرنك؛ لقد اكتشف البشر التقنيات المتقدمة التي لم تكنْ في زمانكِ، والآن لم يعدْ من حضارتهم الإنسانية أيّ شيء؛ فقد أُبيدت مع الجزء الأكبر منهم بعد أن انتشرت أسلحة الدّمار الشّامل التي قضت على معظم سُكّان الكوكب منذ آلاف القرون، ولا تتعجّبين إن أخبرتكِ أنّ المسيح الدّجال بفتنته العظيمة قد خرج في النّاس؛ وقد تبعه خلقُ كثير، ولم ينجُ منه إلّا القليل مِمَّن كانوا يعيشون بالأرض المحرّمة، ولقد نزل نبي الله عيسى- عليه السلام-، وقضى على الدجّال، وقتله عند باب لدّ بفلسطين، لقد كانت فتنته النّكراء عظيمة على قلوب وعقول الإنْس والجن، ولقد انقضى عهد المسيح للأرض، والبشر الآن ينعمون بكلّ خيراتها.

قالت له بصوت يملؤه الشغف: حدّثني عن بلادكم أكثر.

حسنًا، دَعيني أخبركِ بأمر الأرض المُحرّمة التي نُفيت منها؛ فهي جزيرة العرب قبل آلاف السنين، خرج منها أُناس يحملون النّور والفلاح لأهل الأرض؛ حتّى بلغوا بلادكِ المعروفة عندهم ببلاد الأندلس، قاطعته بابتسامة صفراء قصدت بها السّخرية من كلامه، وقالت له: أنت تُهرطق، إنّهم ليسوا إلّا رعاعًا خرجوا من جوف الصّحراء؛ ليعيشوا في الدّنيا خرابًا!

لم ينزعجْ برقان من حديثها، ولكنّه امتصّ انفعالها بشيء من الحكمة والهدوء؛ فصورةُ الفتح الإسلامي لبلادها بلغتها مشوّهة ومغلوطة، فهي ضحيّة أخرى للمفاهيم البشرية التي تتوارثها أجيالهم ضمن إرثِ الأحقاد الذي لا ينضب له مَعين في صدور الكارهين للحقّ وأهله.

نظرت له شذرًا، واختنقت في حنجرتها بعضُ الكلمات، فقال: أرجو أن تجعلي من حديثي معكِ سبيل الوصول إلى الحقيقة الجليّة، وأنا أعاهدكِ أنْ أصغي لكلّ ما يشغلَ خاطركِ، وأن أجعل ليلَ حيرتك نهارًا مُشرقًا بالطمأنينة والسّكون.

صمتتْ هنيهة، ثمّ قالت: ما كنت أودّ الإفصاح عن دسيسة قلبي، ولكنْ قدَّر الله أنّك تعي ما تضمره نفسي، فما أعلمك بي، وما أجهلني بك! وما أقربك منّي، وما أبعدني عنك!

ففي حقيقة النّفس البشرية أنّها لا تؤمن إلّا بما تتيقّن به من حقائق، وهو ما تلمس كنهَه في واقعها، وما تجده مجرّدًا من الظّنون بعيدًا عن التوهّم والخيال.

أنا لا علمَ لي بما قدّمت من قول، ولا تجد نفسي غضاضة في إنكاره بالجملة؛ إذ أنّه ليس على العاقل سبيل في تكذيب كلّ ما ذكرته لي؛ فإجابةُ داعي الحقيقة في البشر أقوى من الاستجابة لنداء الخيال.

تنهّدت كأنّها تشكو نصبًا أو تعبًا بعد أنِ استحالت عليها حروفها؛ هُرعت إلى كأس الماء تتناوله بيدها من جديد، ترتشف بعضَ الماء، تريد أنْ تطفئ عطشًا أصاب كلمتها بالجفاف والظمأ.

سألته: كيف أصبحت جزيرةُ العرب غابات متشابكة، ومروجًا خضراء وارفة تشقّها الأنهار والجداول؟!

كيف أصدّق دعواك، وأكذب ما قرأته في وصْف تلك البلاد من أنّها من شدّة تصحّرها لا تنبت الزّروع الوارفة، ولا تشقّها الأنهار الجارية، ولا تحفّها المروج الخضراء من كلّ جانب كما أراها الآن؟! فهل تخدعني؟

ولماذا قلت لي إنّه يستحيل عليَّ العودة لوطني وزمني؟

– هلّا اقتربت قليلًا يا عزيزتي؟ كان بيدها كأسٌ من البلّور الشّفاف؛ فوضعتها على حافّة الشرفة، وأقبلت عليه في حذر وترقُّب؛ فصورةُ وجهه قد اعتلتها سُحبٌ من الغموض، أمسك بيدها، وأجلسها بجواره، ثمّ قال لها: أنتِ الآن أحدُ آخر البشر الذين يقاتلون زمرةَ الشّر مع متحوِّلٍ نصفه آدمي ونصفه من بني الجن، وقد انشطرت صفاتي البشرية، واندمجت بذرات التّركيبة المُحرقة لبني الشيطان.

عندما كنت شابًّا يافعًا في القرن الواحد والعشرين كنَّا في هذا العصر قد تقدّمنا جدًّا، وسيطرت وسائل الاتّصال والتكنولوجيا على حياتنا بشكلٍ كبير، لدرجة أنّ الإنسان في هذا الزمان كان باستطاعته بضغطةِ ذرّ واحدةٍ وهو جالسٌ على فراشه مشاهدة العالم من جانبه الآخر، وكان بإمكانه التسوُّق وهو في مجلسه؛ فكلّ ما يريد من ملبس ومأكل وغيره يأتيه دون كدٍّ أو عناء.

كانت إيزابيلا صامتة تستمع إلى كلماته باهتمام بالغ، والصّمت له هيبة الغموض، وريادة التفكر، ومعيّة التَّروِّيً، وجمال المخبوء،

والحروف لا ترقد في الصّدور من علَّة، بل تنام بغير غفلة في لُبِّ حصيف عاقل، كان ينظر إلى عينيها، ولكنّه هَمَّ بالسّكوت عندما أرادت النهوض، كان متفهمًا لردّة فعلها، ولما أرادت قوله، ولكنّه استطاع أنْ يكمل حديثه مرّة أخرى عندما وقف إلى جانبها وأمسك بيدها.

- في أواخر القرن العشرين اخترع البشرُ أجهزة تجعلهم يتواصون عن بُعد، وهي ما عُرفت بالهواتف الخلوية، ثمّ الذّكية التي كانت تحتوي على ما أسموها بالتّطبيقات، منها النّافع والضّار، بلغت من خطورتها أنْ أفسدت البيوت المستقرّة، وسلبت العقول النيِّرة، وأزهقت الأرواحَ البريئة، وذلّلت الطريق لفُشُوِّ الرّذيلة بين الخلق؛ فحوَّلت العديد من بني الإنسان إلى شياطين في صورة بشر، وأنا ممّن حوّلتهم تلك التطبيقات إلى عفريتٍ مارد بعد أن اتّبع قريني من بني الإنسان قراءة التّعويذات لإحدى الألعابِ دون سابق معرفةٍ منه بمدى خطورتها عليه، وعند إتمامه مراحل اللّعبة أزهق روحَه بكامل رغبته.

كان صنّاع تلك التطبيقات يعتمدون على السّحر في مضمونها؛ ليتمكّنوا من إحكام سيطرتهم على عقول النّاس، ولقد رأيته مُنْكَبًّا على هاتفه ليل نهار، وقد تبدلت طبائعه بين عشيَّة وضحاها من إنسان سَمِح ودود يألف الناس ويألفونه إلى شبح بغيض لا يعرف من الدّنيا غير تلك الآلة؛ حتّى بات جزءًا منها وهي جزءٌ منه، لا ينفصل عنها إلّا إذا أدركَه التعب منها فيغلبه النّوم، ويصحو ليعبث بها، وهي في حقيقة الأمر مَن تعبث به؛ حتى أوصلته في مساء يوم بائس إلى فوّهة بركان؛ فألقى بنفسه فيه،

ومنذ ذلك الحين وأنا أمتلك قوّة التنقل بين عالَمي البشر والجنِّ بصورة مختلفة، وحكم القبائل سيعود إليّ إنِ استطعنا هزيمة الجَبابرة قبل أن ينالوا مِنّا.

وقد صارحتكِ بحقيقتي أولًا؛ حتى أشفي لك جزءًا من الاستفهامات التي تتصارع بداخلك دون رحمة منذ أن رأيتِني على هيئة الجنّ أوّل مرّة، والآن يا عزيزتي أحسبني أوقفتك على أمور لم يكن علمك بها ليضرّك.

أطبق على يديْها برفق وهو يقول: الحياة يا إيزابيلا لا تعطينا كلّ شيء، هي بالكاد تمنحنا الفرصة لنثبت أحقيتنا بحياةٍ أخرى كاملة غير منقوصة، فأمّك حينما أحرقت التّابوت المسحور وكلّ الأشياء التي كانت في القَبْو ظنّت أنها بتلك المحرقة تمنحك الحياة مرّتين؛ فهي تطهر البيت من رجسِ اللعنة التي أخفتكِ، وما كان ليخطر على بالها أنها بهذا العمل قضت على جزءٍ من خصائصكِ البشرية؛ لتصبحي سجينةً في عالم المستقبل.

تَوَهَّج وجهُها مستنكرًا كلماته: ولماذا لم تمنعهما من إحراق التّابوت؟! ألم تكن حارسًا له؟! يتأجّج صراع الشّك بداخلها من جديد، وتضرم نيران الوحشة بقلبها، وتسيل الدموع من عينها، وتنساب هادرة على وجنتيها، كانت قدِ ابتعدت عنه؛ فرارًا بمشاعرها وما حلَّ بها من انكسار، أتى على كلّ أحلام عودتها لوطنها؛ فأقبلت نحوه برأس مرتفع، ووجهٍ متجهِّم غاضب، وقالت: إنّك إن أردت أنْ تمنعها من إحراق التّابوت لفعلت! ولكن يبدو أنّك أردت سجني في هذا العالم الغريب!

كان وقْعُ كلماتها على قلبه شديدًا أليمًا؛ لقد مزَّقته بخناجر شكّها تارةً، ونشرته بمناشير ثورتها الطائشة تارة أخرى، وهنا أدرك برقان أنّه على

مشارف أنْ يخسر البقيّة الباقية من ثقتها به، فقال لها:لم يكن في استطاعتي منع السيدة ماري، لقد حاولت، ولكنْ دون جدوى؛ فنحن الجنّ لا سُلطة لنا على بني الإنسان، فطاقتنا أضعف من أنْ نواجههم في عالمهم، فبعد اختفائك وفقدانها الأمل بعودتك ثارتْ ثورتها ولهيب غضبها؛ فأضرمت النار في كلّ الأشياء القديمة بداخل القَبْو؛ فهي لم تمتلكْ صبرًا، وكادت تنشبُ النيران في كامل البيت، ولكن ما استطعت فعله أنّني أوقفت امتدادها، فلم يتضرّر غير القَبْو بكلّ ما فيه ليتحوّل معظمه إلى رماد، ولَم يبقَ من تعويذة التابوت غير بعض قطع من الألواح المنقوشة، وهي لا تحمل حروف التعويذة كاملة، وهذه الأجزاء المتبقية أنت لا تعلمين كم ناضلت من أجل الإبقاء على سلامتها، ولكي أحافظ على بشريّتك كاملة، ولكنْ سامحيني لم أستطع!

تهاوت أرضًا كمَن سقطت أحلامها غدرًا، وأسندت رأسها المُثْقَل بالهموم على الحائط الذي كاد ينثني على نفسِه من هَوْل ما تُحسّه تلك الفتاة، وما تعانيه من أثر الصّدمة التي اعتلت ملامحها كغيامةٍ سوداء أمطرتها حزنًا وأسًى، كان خيالها يتأجّج بحُطام من الذّكريات التي لا تمتلك من عالمها غيرها.

اقترب منها يريدُ طمأنتها: هَوِّني على نفسك؛ سأجد لك حلًّا عند حكيم الجنّ الأكبر، أمسك بيدها يريد مواساتها، فأسرعت بسحبها من بين كفّيه الباردتَيْن،لم ييأس منها، وكرّر محاولاته التي كادت تبوءُ جميعها بالفشل، لقد كان من المشقّة بمكان إفهامها أنّ الأمر كان خارجًا عن إرادته.

في بداية الأمر، لم يلمس كلامُه أوتارَ مسامعها، ولكنّها في قرارة نفسها أحسّت بصدق حديثه، وربما هي تريد إزاحة هَمَّ التفكير في مستقبلها المجهول، وتذكّرت أغنية الأمل التي كانت تردّدها كلّما حزبتها همومُ الدنيا وأرزائها.

وضعتْ رأسها على وسادتها تريد الفرارَ مِمَّا أَلَمَّ بها، وكان بينها وبين الكرى خصامٌ قد امتدّ وقته حتى ترقرق ضوءُ الصّباح على جنبات الكون، فلم تزلْ تراقب انسحاب الظّلمة من الأفق، وكلّما ابتعد من ناحية رقّ الصبح في تلك الناحية، وحَلَّ بها، ولم يبقَ منه غير نجمة صباح، هي آخرُ ما تبقّى من أثر الليل، والتي سرعان ما اختفت مع ارتفاع أشعة الشّمس على تلك البسيطة الممتدّة أمام ناظريها وديانًا ورياضًا وأفياءً وارفات، وأنهارًا جاريات!

ولعلّ أجمل ما في الحبّ أنّه اقترنَ بجمال النّفس،

فلا تتكوّنمشاعرُ الحبّ داخلَ نفسٍ قبيحة...

صفاء الفقي

(١١)

أرضُ العرب وسرُّها الكبير

بعد ليلٍ طار فيه الكرى من بين أجفانها، ولم تنعمْ فيه بهناء أو راحة إلّا ما اختلسه التّعب منها خلسة الظمآن لقطرات الندى، يُشرق نهارُ اليوم التالي، فتُطلّ الفتاة الشّريدة برأسها من نافذة غرفتها، وهي تترقّب تلك اللحظات منذ أنْ تركها برقان ليلًا.

وقفتْ أمام المرآة لتجمع شعرَها بشريطٍ أبيض حريريٍّ، ولَم تلحظ أنّ أحدهم قائم بالقرب من خزانة ملابسها، لقد بدتْ منهمكة جدًّا، ويبدو أنّها عقدت العزم على أمر ما.

أعلن عن وجوده بقربها عندما قال لها: طابَ صباحك إيزابيلا.

لم تردّ عليه، ولَم تُعِره اهتمامًا، وبدلًا من الإجابة عليه بتحية الصّباح أخبرته بأنّها عقدت العزم على الذهاب إلى الأرض المحرّمة بمفردها بعد أنْ جاءتها عجوزٌ طيبة من الجنّ ليلة أمس، ودعتها إلى حضور حفل تتويج أميرة الجبابرة على عرش بحر العرب.

دُهِشَ من حديثها، ماذا تقولين؟! وهل صدّقتِها!؟ سبق أن حذّرتك من شرورهم، وأعلمتك بحيلهم ولؤمهم؟! كيف أوقعوكِ في الخديعة؟ لقد عولت على ذكائك كثيرًا في دحْر مكرهم، ولكن خاب أملي فيك؛ إذ أسلمت عقلك لأعدائنا. قالت: كيف أعادي مَن يقدّمون لي يدَ العون

والودّ والمعروف؟! وأنا لم أسيء لهم في شيء حتى يعادوني، فبأيّ منطق تخاطبني؟

- الجبابرة طغاة أنانيون يا عزيزتي، ولأنّنا لسنا منهم يعتبروننا ضعفاء، ولا نصلح إلّا أنْ نكون عبيدًا لهم، وربما فَطنوا لخطورةِ وجودك عليهم فأرادوا التخلّص منكِ.

قالت: وما أدراني، ربّما تكذب عليَّ، أنت لم تقنعني، بل ازدادت رغبتي في استكشاف هذا العالم.

ثمّ أدارت ظهرَها له، وهي تقول: عليك أن تخرج الآن، أريد أنْ أبدِّل ملابسي، ولكنْ يا للعجب! لقد اختفت خزانة الملابس بما فيها! حسنًا، سأذهب بثيابي هذه، فاليوم سأتحقّق من أمرك وأمرهم يا برقان، أسمعت؟!.

كانت تحاوره، فالتفتت إليه برأسها، فلم تجدْه، ووجدت ثوبًا أنيقًا ذَا لونٍ أحمر على حافة سريرها، وما أثار عجبَها أنّه كان مقاسها بالضبط، وسرعان ما ارتدته، ثمّ ذهبت تنظر في المرآة المقابلة لسريرها الذي توسط غرفتها الملكية ذات الألوان الهادئة، لم ترَ صورتها منعكسةً على سطح المرآة كما هي العادة، لقد انصبّ الهلع في روعها عندما شاهدت عجوزَ الجن التي أتتها بالأمس، وهي تُعدّ المكيدة من أجل القضاء عليها، لقد سمعتها وهي تقول لخدّامها بصوتٍ بغيض منكر خالٍ من روح الحُنُوِّ والشّفقة التي كانت عليها عندما دعتها إلى حفل التّتويج المزعوم: إنّ الساذجة فتاة البشر حتمًا ستأتي إلينا، وكما أتينا بها سابقًا فلن ندعَها تلوذ بالفرار هذه المرّة،

هيا أعدّوا لها محبسًا جميلًا يليق بحمقها، وزيّنوا قضبانه بأصفادٍ من النار، ولا تجعلوا النّاعق حارسًا لها؛ فقد أضاعها سابقًا.

وقفتْ من صدمتها تضرب كفًّا بآخر، تروح وتجيء في أرجاء غرفتها حائرةً قلقلة، تعلوها الدّهشة مما سمعت ورأت، قالت في نفسها: نعم، أتذكّر هذا الوحش وأعرفه؛ فهو مَن تتبعني ووضعني داخل القفص الحديدي أعلى قمة الجبل، هذا الذي دعته بالنّاعق كاد يمزّق أجنحتي بمخالبه عندما أمسك بي في سماء الأرض المحرمة.

كان فضولًا يغلب عقلها لمعرفة خبايا هذا العالم، وما دفعها لتتجرّأ على مثل هذا التفكير أنّها أصبحت جزءًا منه، وما خسرته من عالمها الحقيقي لن يُعَوَّض بمكوثها داخل غرفة بأربعةِ جدران، ولربّما صدقت وشاية العجوز عندما أخبرتها بأنّ برقان مطرود من عائلته؛ لأنّه خرق ميثاق الجنّ بأنْ أظهر للإنس من الخفايا ما لا يجبُ أن يعلموه عن عالمهم السريِّ.

كانت على حالتها تروح وتجيء عندما أقبلَ عليها برقان باشًّا متهللًا، قُلت لكِ: إنّهم أعداؤنا، ولكنكِ لم تصدقيني أيتها البشرية العنيدة! وهأنذا أعتذر لَك يا عزيزتي عن كلّ تلك الآلام التي تسبّبت لكِ بها، وعن الحيرة التي تتلبّسكِ من حينٍ لآخر، ولكنْ ثِقِي بي، سأعيدكِ إلى عالمكِ، وستمتلكين حريةَ التنقّل بينَ عالم البشر والجنّ بروحك وجسدك متى أردتِ ذلك، وسأعلّمك شَتَّى فنون القتال.

كانت مستسلمة لقلّة حيلتها، عاجزة عن إبداء أيّ اهتمام ينتزعها من هذا الشّرود الذي جثم على وجهها؛ فهي لم تكنْ مُصغية له، كانت جامدةً

في مكانها تُبعد عينيها عنه، وتنظر خارج حدود غرفتها؛ لأنّها تحمل بين جنبيها قلبَ طائر حرٍّ، ترى أسرابَ الطير في جوِّ السّماء، فتلوح لها وتلقي في حواصلها أمنياتٍ الغدِ المبهم، كانت مترقّبة لكلّ شيء يتحرّك بالقرب منها بعد مشاهدتها لتفاصيل تلك المكيدة التي كانت قد أعدّتها لها العجوز الغادرة.

وكمْ من العجائز في بطون أفئدتهم الهدى والنور، وكم منهنّ ضالات على رءوس الأشهاد، يخرجنَ من الدنيا أسوأ ممّا دخلنها؛ فواسطة دخول الدّنيا لا حول ولا قوّة لأحد فيها، ولكن واسطة الخروج من الدنيا تقتضي علماً وعملًا من كلّ كائن حيٍّ يعقل أو لا يعقل، فالدّابة حتى وإذ لم تكنْ تَعِي من أمور العقلاء شيئًا إلّا أنّها تفهم كيف تُبقي على حياتها وحياة صغارها بعيدًا عن المخاطر، وهي تفهم معنى السّلام والعدوان، فهي تعلم وتعمل.

ولكنّ بعض العجائز يخرجنَ من الدنيا بغير علم ولا عمل ولا حياة؛ فهنّ موجودات في حساب الأجسام، ولكن في حسًاب الزمن ذرّات في جوف يوم عاصف، لا أثر لُهُنَّ ولا وجود!

ما كان برقان ليضيع تلك الفرصة من بين يديه؛ فطمأنها وأرسى في نفسها قواعد الثّبات؛ لتتحمّل ما هو قادم، كان بريقُ عينيها يخفي من ورائه شغفًا بغير حدود، وإرادة صلبة تختبئ خلفَ هذا الجمال الفارع وتلك الملامح البريئة، أثنى على بريقِ عينيها الأخَّاذ الذي سحر قلبه وعقله، فتورّد خدّاها خجلًا من إطرائه، ثمّ نظرت إلى أسفل على استحياء،

تريد أنْ تستجمع بعضَ مقاومتها له، فتبحث عن مفرٍّ آمن تلوذ به من حصاره لها، فيقع برقان تحت قدميها، يريدها أن تُشفق عليه بنظرةٍ حانية من عينيها الهاربتين خجلًا من لقاء عينيه؛ فلم تفعل، وحوَّلت بصرها بعيدًا، ولعلّ أجمل ما في الحبّ أنّه اقترن بجَمال النفس، فلا تتكوّن مشاعرُ الحبّ داخل نفس قبيحة!

يحتضن ساقيها، ويستجديها قائلًا: أعلم أنّك تُبادلينني هذا الشّعور الذي تضّرم نيرانه بحشاشة قلوبنا، وأنا لن أخفي مشاعري تجاهكِ أكثرَ من ذلك، فأنا لا أعشقك فحسب، بل أذوبُ فيك هيامًا وتعلقًا، وكلّما رأيتكِ أودّ أن أخبركِ بهذا، ولكنْ لا أستطيع. أدارت وجهها بعيدًا عنه، ثمّ قالت: عذرًا سيدي، فأنا لا أستطيع أن أبادلكَ تلك المشاعر، وأنا لا أعلم عنكَ شيئًا!

فقال لها: أنت تحاولين إخفاءَ الحقيقة، ويأبى لسانكِ النّطق بها، والتي طالما اشتاقت أذني لسماعها، وتلهف قلبي لقبولها، آه لو تعلمينَ ما الذي ستصنعه هذه الحقيقة بكياني، وما وقعها على نفسي وكياني؟ فبها تسعدُ حياتي وتتلاشى همومي وأحزاني، وأنتِ تدركين يا عزيزتي الآنَ أنني أستطيع قراءتك من الدّاخل؛ لأنني أجري في عروق دمك، وأسبح في ذرّات أنفاسك، فلماذا تُراوغين في إظهار مشاعركِ؟!

قالت له بعد أنْ رفع وجهها إليه وحاصرَها بكلتا عينيه: إنْ كنت تعلم، فلماذا أخبرك إذًا؟!

وأنت تعلم يقينًا أنّ المستقبل المجهول هنا يخيفني، حتّى وإن كنت أحبّك، فالعاطفة وحدها لا تكفي للإبقاء على حياتنا في هذا العالم.

- أنتِ تضنِّين على قلبي بها، وما ضرَّك أنْ تتلفظي بها، وتخرج من فيك لتضيء لها ربوع الحياة في هذا العالم بأسره. صمتت وتردّدت كثيرًا بين يديه، ولكنْ سرعان ما ألقت برأسها على كتفه تعانقه، فشعر أنّه يملك الدنيا، وأنّ مقاليدها أصبحت في يده!

أطرق لها وهي تقول تلك الكلمات: إنْ عُدت إلى عالمي، ماذا سيحلُّ بقلوبنا؟ أليس عذابًا أنْ نحبّ على أمل الفراق؟

فأجابها بقُبلة على جبينها: يكفيني أنكِ تحملينني في قلبكِ، ولو شعورًا؛ فأنا أقنع منكِ بأقلّ من ذلك.

كانت لحظاتُ اعتراف شاقّة عليهما، وتمنّت إيزابيلا أنْ تتوقّف عقارب الزمن عند هذا الوقت الذي يجمعهما، شبّكا أيديهما، واختلطت أنفاسهما حتى أصبَحَا نفسًا واحدة بقلبٍ واحد، ضمَّها إليه، وتصافحت القلوب لأوّل مرّة، ولكنّ السّعادة التي ضمّتهم في هذا الوقت لم يدمْ وقتها طويلًا؛ فصياح "الناعق"- وحش الجبابرة- بصوته المخيف قد شقَّ حُجب المدى؛ فسمعاه وهو ينادي على برقان قائلًا: أيّها المطرود، إمّا أن تأتي لنا بالفتاة اليوم كما وعدت، وإمّا سنقتل أبناءَ عشيرتك عند غروب شمس الغد.

تغيَّر لونُ وجهها، واحتدَّ صوتها، ثمّ دفعته بعيدًا عنها وهي تسأله: هل وعدتهم بأنّك ستسلمني إليهم؟!

فأجابها: لو وعدتهم لتركتك تذهبين لهم بمحضِ إرادتك، ولكن لنْ أفرّط فيكِ، أنت مِنّي كنفسي، أنا حقًّا أحبكِ يا إيَزابيلا، ليتك تُدركين هذا، وإيّاك ونقض عهدنا هذا!

قالت- وهي مبتسمة-: أعاهدكَ أنّني لن أكون لغيرك.

قال لها: سنتزوّج قريبًا في بلدتك، لقد أعددت كلّ شيء من أجل هذا اليوم السعيد.

قالت: كلّما قلّبت نظري أبصرتك ثاويًا في كلّ زاوية تجاذبني، وكل المساحات أنت تملؤها، ترى مَن أعطاك حقّ امتلاك أجزائي؟!

تشعر بحرارةِ الجناحين وهُما يشقّان عظامَ كتفيها من جديد، ولكنهما بَدَوَا أكبرَ مِمَّا كَانَا عليه سابقًا.

يضعُ برقان في عنقها قلادةً مشعّة ذات لآلئ منظومة في سلكٍ من الذّهب الخالص، تتوسّطه جوهرة برَّاقة مستديرة الشكل، وأخبرها بضرورة الحفاظ عليها؛ لأنّها ستكون دليلها حينما لا يكون هو بجوارها، وأخبرها أيضًا أنّ تلك القلادة ستكون بوّابتها إلى عالم البشر إذا لم تتمكّن من رؤيته مرّة أخرى، أمسك بيدها وأقلَعَا يُحلقان إلى وجهتهم الأخيرة قبل لقاء الأعداء الذي ستستعر نيرانه عند غروب شمس الغد.

كانت الأجواءُ غائمة، والسّماء تخفي ثوبها الأزرق خلف السّحب السّوداء المتراكمة فوق قمم الجبال الخضراء العالية، وأزيز الجبابرة يهزّ الأرض المُحرَّمة، وقد أعدّوا جيشًا عتيدًا خلف تلك القمم الشّاهقة؛

لخوض حربهم المصيرية. أطرقتْ إيزابيلا مليًّا إلى صوت تلك الجلبة الآتية من بعيد، حتّى ملأت عليها سمعها؛ فاهتزّت منها خوفًا واضطرابًا، ففاضت عينها بالدّموع وتساءلت: هل هذا الجيش من خلف التّلال أعدّ لنا نحن الاثنيْن فقط؟!

كان برقان ذاهلًا مشْدوهًا، تتخطّفه الحِيَل والأفكار والخطط، ولكنْ راعه انزعاج إيزابيلا وتوتّرها في تلك السّاعة الحرجة؛ فقال لها: يا عزيزتي، إنّنا حين نمتلك من إرادتنا خيطًا واحدًا سنحيك به لنا ولغيرنا أثوابًا ذاخرة من العزِّ والفخر، وما يقدّمه المرء في سبيل مبادئه العادلة أرْجَى له مما يقدّمه في سبيل أهوائه الخاصّة، وما عرفتكِ إلّا عالية القيم، سامقة المبادئ يا عزيزتي، فلا تتعجّلي معرفة ذاتك الحقّة وقواك الكامنة؛ فسيخرجها إلى نور الواقع إحساسُك الصادق وإيمانُك الثابت المنبعث من قرارة قلبك.

هَبَطَا على وهْدة مستوية من الأرض بالقرب من بئرٍ مهجور في أحد الأودية المتاخمة للأرض المُحرَّمة؛ فاقترب برقان من محبوبته، وأخذ يتمتم في كفّيه بكلمات لم تفهمها، ثمّ كرّر تمتماته ثلاث مرّات، كان يضع كفّيه على وجهه، ثمّ ينفث بها، ويمسحها بثيابه وبدنِه، بدا الأمرُ غريبًا عليها، ولكنْ ما العجب في ذلك؟ فكلّ ما حولها غريبًا عجيبًا لا عقل يصدّقه، ولا خيال يستوعبه، ولا النّفس تأنس به!

قال لها: الآن حصّنت نفسي بالله؛ فهو الذي قدّر لي حياتي ومماتي، وبيده قوّتي وضعفي، وبيده نصرنا.

لقد اجتذب اهتمامها به أكثرَ من ذي قبل، كان يربِكُها عدمُ إلمامها بكلّ عالمه، ويؤلمها قلّة إحاطتها بكلّ شيء له في دخيلة نفسِه مكانًا أو مكانة، استقبل وجهها الذي تجلّى له منه نور الصّبح. ثمّ قال لها: ما أعجل الزّمان يا إيزابيلا! فمنذُ وقتٍ ليس بالبعيد توقّف الزمان ليجمعنا على قلب واحد، وها هو يُسرع بنا نحو مصيرٍ غاب خيرُه وحضر شرُّه، ولكني سأحملكِ في جنبات صدْري ما حييت، وهذا عهدي فاحفظيه!

مَدَّ يده لها ليصافحها مصافحة الرّفيق لرفيقه؛ فهُرعت بنفسها العالية إليه تقاسمه العهد، وتوثّق عقد قلبيهما بعناقٍ كأنّه وداعٌ أخير لا لقاء بعده.

وَقَفَا على حافّة البئر، يتأمّلان انعكاس وجهيْهما في صفحة الماء، كلّ منهما لا يريد لتلك اللحظات أنْ تمرّ، كَانَا يتوسّطان البئر، وأعينهما لا تبصر سوى الظّمأ الآتي من بعيد ليقضي على جمعهما بالتفرُّق والتمزُّق والشتات، ثمّ تحوّل برقان إلى هيئة الجنّ، وما إنْ نَزَلَا إلى باطن البئر حتّى تحوّلت هي أيضًا من بشريّتها إلى صورة كائنٍ ضخم ذي أجنحةٍ عظيمة، سريعًا غاضَ ماءُ البئر، ثمّ انقشع الظّلام عنٍ كهف كبير في باطن الأرض، كان الصّوت في الأسفل صاخبًا جدًّا، ولكنّها لم تكنْ ترى أحدًا، كان برقان مُمسكًا بيدها ليطمئنَ قلبها؛ فلا تفزع مما حدث لها من تغيرات، سرعان ما تتبدّل، وتعود إلى طبيعتها متى أرادت ذلك.

أحدُهم ينادي على برقان، صاحب صوت مرتعش متقطّع بحشرجة الشّيخوخة: أقبِلْ يا بُني؛ لقد انتظرتك طويلًا، إنّ الجبابرة أكثروا الفسادَ

في الأرض المُحرَّمة، ولن نحتملَ أذاهم بعد اليوم، وقد أتت البشرى ببدء المعركة!

يتوجّب عليك اليوم أنْ تقاتلهم، واطمئنّا فلن تكونَا بمفرديْكما؛ ففي ساحة المواجهة والقتال اجتمعت القبائل التي فرّقها طغيانُ المتمرّدين، وهُم الآن أعلنوا عن عزمهم خوض الحرب معكما.

همسَ في أذنها: لا تخافي، إنّه الجدّ الحكيم، لقد كان كبيرَ الجنّ وحاكم الأرض المُحرَّمة قبل أنْ يأتي الجبابرة، ويُحكموا قبضتَهم عليها.

يناديها العجوز: تعالي إلى هنا أيّتها الفتاة النبيلة.

تقترب منه بثباتِ البطل المغْوار، يضع الجدّ كلتا يديه على كتفيها؛ فتتلألأ بالضّوء أجنحتها، والقلادة التي تحيط بعنقها، كانت تهتزّ وتضطرب من شدّة ما يُصبّ على عاتقها من ذبذبات القوّة السفلية، وهي قوّة لا تُعطَى إلّا لقادة الجيوش المخلصين، فهي قوّة خفيّة يهبها الحاكم، ولا يتحمّلها إلّا مَن جمع مكارم الأخلاق العليا في قلبه من البشر والجن على حدّ سواء، كانت كلّما اكتسبت من الحاكم العجوز قوّةً ازداد توهّج أجنحتها إلى أنْ بلغ بالعجوز الحكيم الإعياءُ والجهد، نظرَ وأومأ له قائلًا: حانَ دورُك يا برقان.

ولكنْ يا للهول! لقد تحوّل العجوز إلى ذرّات من دخان قبل أنْ يمنحه القوة اللازمة لمقاتلة الأعداء.

يتسارع الوقتُ في النّفاد، ولا أمل لبرقان في أن تزداد قوّته، وما زاد الأمر سوءًا هو أنّ خبر وفاة الجدّ الحكيم قد ذايع في الأرجاء،

وهذا ما أسعد الجبابرة، وجعل صيحاتهم تعلو من خلف الجبال احتفالًا واحتفاءً بهذا الخبر.

أدرك برقان بقوّته الخفية أنّ جيش الأعداء يتقدّم إلى أودية تهامة قرب البحر الأحمر؛ فهناك سيتمّ حسم المعركة الأخيرة بين الجيشين، بين الحقّ بخيره وبين الباطل بشرّه، وإنّ العدالة السّماوية لتأبى للخير إلّا أنْ ينتصر، حتّى وإنْ قلّ أتباعُه، وينهزمُ الشرّ وإنْ احتشدت جنودُه وجُيِّشت جيوشُه.

عند البئر الحزين لفقد الزّعيم الحكيم- الذي طالما كان ملاذًا له بعد ضياع ملكه على أيدي الجبابرة- تنهال جموعُ الدّاعمين لبرقان وإيزابيلا، الجميع عازمون على توحيد قوّتهم، وتصحيح مسارهم بعد أن تشرّدوا في أنحاء الأودية؛ فرارًا بحياتهم بعدما ذاقوا من ألوان العذاب والتّنكيل، وأُزهقت أرواحُ الكثيرين منهم على أيدي الطغاة.

لماذا أرضُ العرب هي ساحة الحرب الأخيرة؟!

سألتْ إيزابيلا بعد أنْ مالت على كتفه تلتمس الأمان، وتسرُّ إليه قولَها.

فأجابها: لأنّها مهبطُ أهل السّماء الأوائل؛ فآدم وحواء بعد نزولهما إلى الأرض التقَيَا فيها، وكذلك كان إبليس بالقرب منهم؛ ليحيك مكرَه لهم ولذريّاتهم من بعدهم، فضمّتهم تلك البقعة على ما كان بينهم من تناقض

بَيِّنٍ واختلاف ظاهر؛ حيث تلتقي قوة الخير والشّر لأوّل مرّة على ظهر هذه البسيطة، ومِن حينها والقوتان مازالتا تتصارعان لأمرٍ لا يعلمه إلّا الله.

مازالتِ الجموعُ تتوافد!!

أتعلم أنّ أرض العرب هذه خرجَ منها قومٌ كانوا يسمّون بالمسلمين، وأتوا إلى بلادنا فنشروا دينهم ومعتقداتهم في ربوعها وبين أرجائها، ولقد سمعت أحدَ حكماء بلدتنا ذاتَ مرّة يقول عنهم: إنّ زمانهم كان زمانَ العدل والإنصاف، وعصرَهم كان عصرًا خاليًا من الظّلم والإجحاف، ولكني سمعت أبي يقول عنهم: إنّهم كفّار يمرغون جباههم بالتراب خمس مرّات في كلّ يوم، ويُحَرِّمون على أنفسهم الخمر، والرّبا، والخنزير، وغيرها من الأمور التي لا تكون حياةُ الناس إلّا بها!

– عزيزتي إيزابيلا، المسلمون ليسوا بهذا السّوء، وليس من المنطق أنْ يؤمن المرء بكلّ ما يطرق سمعه من أحاديث وأخبار ربّما لا تعتمد إلّا على خيالاتٍ زائفة، ولم تُستمَدّ إلّا من أوهام طائشة.

المسلمون مسالمون جدًّا، وهُم آخر مَن حملوا الوثيقة السّماوية الفذّة التي تحمل كلام ربّهم الحقّ لهداية الخلق، وقد ظُلموا كثيرًا على مرِّ العصور وكرِّ الدهور.

قالت: أخبرتني الرّاهبة ذاتَ مرّة إنّ علماء المسلمين هُم مَن حملوا لواء العلم وكافّة الفنون لكلّ مكان دخلوه، وأنّ مَن جاور الصّالحين منهم

فهو الآمن على داره وماله وعياله؛ فهم يتبعون السّيئة بالحسنة، وينصرون الضّعيف، ويغيثون الملهوف.

كانت أشعةُ الشّمس تتسرب خجْلى من بين الغيوم الدّاكنة، فتارة تُرسل الدفء في القلوب والنفوس بحرارة أشعّتها، وتارة أخرى تأسِرُ الأرواحَ بمغيبها حينما تواريها السّحب من جديد.

كانت الأجواءُ حول بئر الحكيم الفقيد ذاخرةً بمشاعر المؤازرة والمواساة، وبينما هما في غمرة إعداد الجيش وحصر ما عندهم من عدّة وعتاد، صاح أحدُ الجنود: خذوا حذركم؛ فالأعداءُ يحاصرون الوادي من حولنا!



كلّما قلّبتُ نظري أبصرتُك ثاويًا في كلّ زاوية تُجاذبني!،

وكلّ المساحات أنت تملأها!

تُرى.. مَن أعطاك حقَّ امتلاك أجزائي؟!

صفاء الفقي

(١٢)

موقفٌ نبيل

أصحابُ المواقف النبيلة لا يتعنّون في استيعاب احتياج الغير، بل يقدّمون ضمائرهم بساطًا لكلّ سائل، فهم يحيون في ظلٍّ مِن الصّفاء الفطريِّ، يغبطهم عليه كلّ غادٍ ورائح.

عند باب البيت الكبير، وأثناء خروج قائد الشّرطة وابنته، وقف أحدُ المساكين يرتعد وينتفض، كأنّه لا يكاد يمتلك طرفَيْ فكّيه لينطق بحرفٍ واحد من شدّة البرد الذي سلبه لسانَه وشعورَه بالدفء؛ فلا يصدر منه سوى أزيزٌ يثير في نفس كلّ مَن يراه الشفقةَ عليه، ولكنّ رؤية المسكين بهذه الحال لم تؤثّر في قائد الشّرطة لوبيل إلّا بالاشمئزاز بعد أنِ انتفخت نفسه بمشاعر الفوقيّة التي انبجستْ من قلبه إلى عينيه كصواعقَ ورعودٍ لا تُبْقِي ولا تذر!

وهنا تدخّلت رحمة ماريو الذي خلع معطفَه ووضعه على كتفَي المسكين غير مبالٍ بتلك النّظرات التي فاقت حدود الغرور والتّغطرس، بل فاقت التّعالي بشيء من الاستخفاف بآلام الناس.

يمتطي قائدُ الشّرطة عربته، ثمّ ينطلق فالقًا دربه تحت جُنح الظّلام الدّامس، كانت الفتاة شاردة تهزّها العربة وتقلقلها، ولكنّها سرعان ما

أسندت رأسَها على الكرسي الذي مال بها قليلًا للوراء؛ فاستسلمت لهذا المنظر البديع بعد مطالعتها لوحة السّماء البعيدة التي تُوّجت بالقمر في ليلةِ بدره، وازدانت بالنّجوم اللامعة في عليائها، وتمّت نعمة حسن تلك الليلة ببرودة النّسمات العليلة التي كانت تُصافح وجهَها بخفّة ولطف، كان صمتُ الأشجار وصخبُ عجلات العربة وصلصلةُ الخيل التي تجرّها يبعثون في نفسها كلّ ألوان السّعادة والغبطة في تلك السّاعة، وإنّه لا يجتمع على المرء في كلّ ساعات عمره مثل تلك اللّحظات التي يرى فيها من ألوان السّرور ما يُغْنيه عن كلّ أيام دهره!

فيولا، فيولا.. ناداها عدّة مرّات، ولم تنتبه له؛ فظنّ أنّه قد غلبها النوم كعادتها كلّما اصطحبها معه إلى أيّ مكان منذ أنْ كانت صغيرةً بذوائبَ مُدلّاة على جانبَيْ مؤخّرة رأسها، ولم يدرِ أنّ صغيرته الكبيرة كانت غارقةً في عالم هو أبعد ما يكون عن تصوّراته وخياله. بعد قليل يصلان إلى البيت، فتتوقّف الخيول عن المسير، وتثبت أمامَ عينيها صورة الأشجار المتحرّكة، تُقيم رأسَها فترمق أباها يمدُّ لها كفّه ليمسك بيدها، وينزلها من العربة. وأثناء سيرهما أخذ يُلَمِّح لها في طيّات حديثه عن ماريو؛ عَلَّه يجدُ منها قبولًا بالزّواج من هذا الشّاب الذي أبدى اهتمامًا بالغًا لحضورها اليوم.

أبدتْ فيولا إعجابًا واضحًا بماريو، وهذا ما لم يكنْ يتوقّعه لوبيل من ابنته؛ إذ إنّها لم تقبل بمَن هُم أوسم وأيسر منه حالًا وجاهًا!

قائد الشّرطة الذي خطّ الشيبُ في رأسه خطوطه البيضاء مُعلنةً عن قُرب دُنُوِّ الأجل لم تكن نفسه تستمدّ شيئًا من أنوار الفضيلة والوقار،

ولم تردْ نفسُه موردَ العفّة والصلاح، بل إنّ قلبه تلوّن بالسواد والأحقاد، فأخذ يرمق ابنته شذرًا؛ لأنّها ارتأت القبولَ بماريو لصلاحه وحسن أخلاقه، وأحزنَه أنّها لم تُبصر تلك الأملاك من خلفِه، وهي المترامية الأطراف شاسعةُ المدى...

فيولا التي دَقَّ قلبُها لأوّل مرّة اليوم عميتْ حتّى عن حديث أبيها القاسي؛ فكلّ ما تراه الآن هو ذاك الشخص الذي استطاع بهدوئه ورزانته أسْرَ قلبها واستلابَ فكرها من أوّل لحظة وقعت عينها عليه.

وهكذا يفعل الحبّ عندما يقرع القلوبَ فيسرق الخاطرَ ويأسر العقلَ ويهيم الذكاء في فلك يكون مداره المحبوب، ومحورُه صورتَه الحاضرة في الذّهن حضورَ الحقّ والواقع، شرود يستوطن لحظات العمر، وهو في حقيقته استحضار لكلّ معاني الحبيب الذي غاب جسده، ولَبَّى نداءَ الخاطر في مخيّلة القلب بسمته، ودلّه، وسكونِه وحركاته، فلا تستقيم فيه فكرة واحدة، وتتسارع دقّاتُ القلب كقطار اندفع إلى وِجْهة غيرِ معلومة بلا رويَّة أو تدبُّر، الوجهةُ معتمة كلوْن السّماء التي تنظرِ إليها فيولا الآن، وكأنّها تلمح لمعةَ تلك النجمة الشّرقية لأوّل مرّة، فتُحدّثها بطيفِ هذا الحاضر في خلدها، والغائب عن عينها!

للوجدانِ حديثٌ تصفو به النّفسُ أو تكْدُر،

وتعلو به الهممُ أو تفْتر...

صفاء الفقي

(١٣)

ماريو وفيولا

لم يكنْ ماريو في حالٍ أفضلَ مما هي عليه فيولا؛ لقد طار عقله وقلبه بها، فكلّما نظر إلى صفحة القمر تذكّر وجهها الوضّاء، وكلّما سمع زقزقة العصافير وهي تشدو بأجمل الألحان تذكّر عذوبةَ ورقّة صوتها وحسنَ همسها، وكلّما عانق بصرُه وجهَ السّماء تراءت في مخيّلته بعينيها الزّرقاوين، وما لبث أن تذكّر حديثه بالسّوء عنها مع صديقه جاك، وأخذ يلوم نفسَه ويؤنّبها بشدّة.

لم يكنْ شعور الحزن الذي خَيَّم على كلّ مَن في البيت ليمنعه من التّفكير المستمر بمحبوبته الحسناء التي طبع صورة وجهِها في لوحةٍ متقنة لم تجفّ ألوانها بعْد.

كانت فرشاتُه بين أنامله تنطق بما ينطق به وحيُ خياله، ولكنّ نفسه لم تقنع بصورتها على الورق؛ فخرج مسرعًا، وقد واتته فكرةٌ مجنونة، فذهب وامتطى جوادَه الأسود، وها هو يتّجه نحو جانب البلدة الشرقيِّ حيث بيت قائد الشّرطة لوبيل تحت جُنح الظّلام. اقترب من سور البيت الذي لم يناهزْ بضعةَ أذرع، كان في خفْية يراقب المنافذ والشرفات وهو يقترب من حديقة منزل قائد الشّرطة، وحالما التفّ نحو زاوية البيت المقابلة لمدخله الغربيِّ سهلَ عليه تمييز غرفة محبوبته التي أطلّت من إحدى شُرفاتها تخاطب صويحباتِها من نجوم السّماء، ترك حصانه وترجّل، ثمّ اقترب أكثر ليَتَسَنَّى

له رؤيتها بوضوح؛ فيشفي ما بصدرِه من شوق لها، ودون أنْ ينتبه وقعت قدمُه في شَرك أعدّه قائد الشّرطة سابقًا من أجل اللصوص، لم يستطعْ ماريو كبحَ صوت ألمه؛ فانتبهتْ له فيولا التي ارتعبت منه، فهُرعت إلى داخل غرفتها خوفًا وفزعًا، ولكنها استحضرتْ بعضَ شجاعتها فجلبتِ المصباحَ الزيتيَّ لتتمكّن من رؤية ضحية شَرك أبيها.

وما إنْ زلَّت قدمه بين فَكَّي الفخّ المؤلم حتّى رأى شبح إنسان قادم من بين شجيرات الحديقة حاملًا معه سراجًا زيتيًّا صغيرًا، فعرفها وأخفى وجهَه بكلتا يديه اللّتين ضمّهما حتى لا تهتزّ صورته عندها، فأدار ظهره لضوءِ مصباحها، وتحول إلى الناحية الأخرى يجرُّ قدمه زاحفًا على ركبتيه، وهو يحاول الفِكاك من الشّرَك الحديديِّ الذي أسال دمَه، وأوغل في قدمه بأسنانه المُدبّبة.

في كلّ مرّة كان يحاول انتزاعَه كان يضربه اليأس بعجزه أمام الألم المبرح؛ فلا يستطيع كبح صوت أنينه، فقد اخترق قدمَه من الناحيتين. فيولا رغم فزعها منه وعدم معرفتها به أمْهَلته بعض الوقت ليستطيع الهرب، وأخذت تراقبه من بعيد؛ ففي قرارة نفسها تُدرك أنّ مَن أتى إلى بيتهم في تلك السّاعة المتأخرة ليس إلّا جائعًا أعدم الفقرُ جسده، وأنهك العَوَز كاهلَه، كانت تمتلك نفسَ قلب ماريو الذي يئنّ تحت وطأة أوجاعه وجروحه الآن.

ولكيْلا تجتمع حظوظُ ماريو السيئة كلّها في ليلة واحدة كان يصدر من بيت قائد الشّرطة أصواتٌ مختلطة، يسمع بعضَها ويبهم أكثرَها لأناسٍ

كانوا برفقة قائد الشّرطة لوبيل، وعلى ما يفهم ممّا أحدثوه من أصوات صاخبة أنّهم شربوا حتى الثُّمالة.

فيولا أيقنتْ أنّ هذا المسكين لن يفلت من عقاب أبيها، وهنا قرّرت أن تقترب منه لتساعده دون أن يشعر بها أحد، تمكّنت من التغلّب على خوفها، إلّا أنّ يدها ترتعد وترتجف خوفًا من أنْ يكتشف والدها ما تقوم به الآن، فلمّا دنتْ منه راعَها ما رأت؛ فتلك الملابس رأتها سابقًا على أحدهم، وهذا الشّعرُ خفيف التجعُّد لم تره إلّا في رأس ماريو، ثمّ قالت له: لماذا تُخفي وجهك هكذا؟ مَن يأتي لسرقة قائد الشّرطة عليه أنْ يتحلّى بالشجاعة. وهنا أماط ماريو يديه عن وجهِه قائلًا- وهو يتألم-: وماذا أفعل إنْ سرقتْ ابنةُ قائد الشّرطة قلبي؟!

اضطربتْ فيولا، وأُصيبت بصدمة من نوع جديد، فمَن أسهرها الليل وملأ عليها خيالها قد وقع في حبّها، وفي شَرَكٍ أبيها!

فانكبّت عليه بكامل طاقتها تدفعُها عاطفتها دفعًا، وهي التي جعلتها تزيح أسنانَ الشّرَك بكلّ ما أُوتيت من قوة، ولم تنتبه للجروح التي أصابت يديها الرّقيقتَيْن، لم يكنْ لديها وقتٌ للتفكير فيما لحق بها من أذى، وبعد عناءٍ وجهدٍ كبيرَيْن استطاعت إفلاتَ قدمه.

ولكنْ يا للهول! ما كلّ هذه الدّماء التي تسيل من يدِك يا فيولا؟!

فقالت: حسبي من هذه الجروح أنّها جعلت دمي يختلط بدمائك يا ماريو.

شقَّ قطعةَ قماش من قميصه، ووضعها حول يدها، وغفل عن ألمه وجراحه، في الوقت الذي كانت تلفُّ قدمه بمنديلٍ من القماش المطرّز بالخيوط الحريرية، كانت قد أهْدتها لها أمّها وهي صغيرة.

قالت: قدمُك تنزف بشدّة، عليك الذّهاب إلى الطبيب الآن. خوفُها عليه زاده أنسًا بها، وأشعل في قلبه نار التعلُّق بها أكثر.

كأنّ جروح البدن حين تصيب المحبوبَ يكون عمقها غائرًا في قلب حبيبه، فهو يستشعر الألم بإحساسه وروحه، وهذه هي معجزةُ الرّوح الخفيّة التي أودعها في آدم وذريّته من بعده، فالإنسانُ يحسّ بروحه؛ فيسعد ويتألم حتّى وإن غابت مظاهرُ ذلك عن ملامحه.

كان لقاؤهما الأوّل داميًا بلون خفقاتِ الحبّ الأولى، دافئًا بمشاعر الألفة والوصال، كاشفًا لكلّ ما في قلبيهما من مشاعرَ صادقة، فبرغم ما لحق بهما من آلام وجروح بليغة فإنّهما قد أصبَحَا شخصًا واحدًا بروحَيْن مؤتلفتَيْن في كيانٍ واحد، لا يفصله ظرفُ زمان، أو يمنعهم حصنُ مكان، فقبل أن تختلط دماؤهما ببعضها قدِ انْسجمتْ روحيهما، واتسقت أفئدتهما في عهد سماويٍّ وثيق.

ودّعها بعد أنْ خلّصته من شَرَك أبيها، ووقَعَا معًا في شَرك الغرام الذي فاض على جروحيْهما سكينةً وسلامًا.

"وما الحُسنُ في الوجوه إلّا مِن إشراقِ القلوب بالنّور والسّكينة...

صفاء الفقي"

(١٤)

لصُّ المساء

صبيحةُ اليوم التّالي، حضر أحدُ الفلاحين لتشذيبِ حديقة منزلِ قائد الشّرطة، فلاحظ أثرَ بقع الدّماء التي تجمّعت في بؤر صغيرةٍ حول الشّرَك وبين أعشاب الحديقة، وعلى الفور تمّ إبلاغ قائد الشّرطة لوبيل الذي هرُع إلى مكان الحادث مذهولًا، كان عليه أن يُعمل خبرته؛ فأخذ يدقّق ويتحقّقَ من مكان الواقعة، تتابعه فيولا من النّافذة، وتنظر إلى يدِها المُصابة، وتحاول تدبير كذبةٍ يستسيغها والدها الذي إنْ كشف أمرها سيعاقبها عقابًا أليمًا، وبكلّ تأكيد لن ينجو منه ماريو.

بعد قليلٍ أتى بعضٌ من رجال الشّرطة، وهم ليسوا غرباء عن بيت قائد الشّرطةً، فأحدهم كان في البيت ليلة أمس، أخذوا يدورون حول البيت، ويتجوّلون مجيئًا وذهابًا، أحدُهم يهرول مسرعًا نحو قائد الشّرطة، ويبدو أنّه قد عثر على قطع من القماش مُلَطَّخة بالدّماء، قال باولو- وهو أحدُ رجاله المخلصين-: ً هذه قطعةٌ من ثياب اللصّ يا سيدي، وهذا القماش لأحدِ أثرياء البلدة؛ فالفقراءُ لا يمتلكون تلك النّوعية الفاخرة من القماش.

صعدتْ إحدى الخادمات درجَ الطابق الأعلى حيث غرفة فيولا التي كانت تعتصر على أريكتها من شدّة خوفها، استأذنتِ الخادمة، ثم دخلتْ عليها، ألقت التّحية بانحناء، ثمّ اعتدلت وهي تقول: إنّ سيدي قائد

الشرطة يخبرك بأنّ كلّ مَن بالبيت عليه أنْ يخضع للتحقيقات الجارية يا سيدتي. قالت فيولا متعجّبة: حتّى أنا!؟ فأجابت: نعم يا سيدتي، حتى أنتِ. حبست أنفاسَها كمَن غرق في عمق بئر سحيق من الحيرة والقلق؛ فيداها لم تزل تؤلمها، وجروحُها ستنزف دمًا إنْ أماطت الأربطة من فوقها.

كانت تتفقّد خزانة ملابسها؛ فوقعتْ عيناها على ثوب أسود بأكمام طويلة كانت قد ورثته عن أمّها؛ فلم تتردّد في ارتدائه، وقالت في نفسها: هكذا لن تظهرَ يدي، وآمل ألّا يلحظ أحدُهم تلك الجروح، وإلّا فإنّ الشكوك ستحاصرني مِن كلّ جانب.



أنْ تبقى كاملًا بلا شقوقٍ أمرٌ يستدعي لقلبك كلّ الأقنعة،
وتلك الشّقوقُ في صدرك خيرٌ لك من زيفٍ يُهلك براءتك...

صفاء الفقي

(١٥)

جاك ينقذُ الموقف

في حديقةِ المنزل الكبير، وقف عدّةُ رجال، ويبدو أنّهم فلاحون أتوْا من أجل العمل لدى خوسيه، الذي مازال يعاني من وعكتِه الصّحية تحت وطأة الحمى.

يستقبلهم ماريو الذي بدا عليه التّعب والوهَن؛ فهو يعاني من جراح بليغة في إحدى قدميه، وقد اتّخذ عصا غليظة عكّازةً حتّى لا يختلّ توازنه.

كان يقول لهم: عليكم أنْ تُزيلوا كلّ تلك الأعشاب الضارّة، ثمّ اجمعوا ما تبقّى من ثمار التفاح في شرق الحديقة.

تراه زوجةُ أخيه ماري يتّكئ على عكازه وهو يتحدّث إلى هؤلاء الفلاحين؛ فتهرع إليه قائلة: ماذا أصاب قدمَك يا ماريو؟

فيرتبكُ ويعقد التّلعثم لسانَه، ويقول: لقد سقطت من فوق الحصانِ ليلةَ أمس.

- هل تؤلمك الآن؟

- ليس كثيرًا.

- آه يا ماريو، تُرى ماذا أصابنا؟ هل أصابتنا لعنةُ ذلك الصندوق الكبير؟!

يلتفتُ إليها وقد راعَه ما قالت، فتعجب مِمَّا تقول، وسألها: عنْ أيّ صندوق تتحدّثين؟!

فتشير بعينها وتحرّك رأسها إلى جهة القَبْو.

على عجل يطلب منها أنْ تريه إيّاه، تتقدّمه وهو من خلفها يجرّ قدمه جرًّا، وما إنْ وَصَلَا إلى القَبْو حتى داهم أنفاسَهم الدّخان، ولم يستطع التّنفس؛ فيخرج مسرعًا من الممرّ المؤدّي إلى القَبْو وهو يقول: مَنْ أشعل تلك النار في البيت؟!

فقالت: فعلتُ ذلك لأتخلّص من لعنة ذاك الصندوق.

فيصيح ماريو: وماذا لو أتت النيرانُ على كلّ مَنْ في البيت؟! هل جُننتِ يا ماري؟!

الفتى المهذّب سرعان ما شعر بالذّنب تجاه زوجة أخيه؛ لفظاظته وغلظته التي جعلتها تنزوي ترثي ما آلَ إليه حالها.

بخطواتٍ عرجاء اقترب نحوها معتذرًا لها، لم أقصدْ إهانتك، ولكنْ كان من الممكن أنْ يشتعل البيت بأكمله، كان يجبُ عليكِ أن تتحلّي بالصبر والتّأني، على الأقلّ حتّى نستطيع رؤية هذا الصندوق، لربّما كان يحمل سِرّ اختفاء إيزابيلا!

تقول له: لا أحد يشعر بتلك النّيران التي تتأجّج بجنبات قلبي يا ماريو!

تتركه وتذهبُ بمفردها إلى القَبْو مرّة أخرى، وتعود إليه وبيدِها بعضُ الألواح العتيقة بعد أن انتزعتها من غطاء التّابوت.

دُهش من نوع الخشبِ الذي صُنع منه ذاك التابوت، وأخذ يقلّبه بين كفّيه، وبينما هو كذلك لاحظ عليه بعضَ الأرقام والحروفِ المبهمة، والتي بدتْ كأنّها كتابات شرقية كالتي كان ينقشُها المسلمون في بيوتاتهم وأزقّتهم، أسَرَّ الأمر في نفسه، ثمّ أرسل إلى صديقِه جاك الذي لَبَّى دعوتَه على الفور، وما إنْ رآه حتّى أطلعه على سبب دعوته له.

جاك يستطيع أنْ يُمَيِّز الحروف العربية، بل يعلم معاني الكلمات أيضًا.

_ ما هذا بحقّ الإله يا ماريو؟ مِن أين أتيت بتلك القِطع الخشبيّة النادرة؟

ازداد تعجّبُ ماريو، ثمّ قال: إنّها كانت موجودةً بأسفل القَبْو، وزوجةُ أخي أحرقت كلّ شيء مخافةَ اللعنة التي تحيطُ بنا منذ اختفاء إيزابيلا ابنة أخي، أتعلم إلى أيّ البلدان تعود تلك الأحرفُ والرموز؟! فقلبي يحدّثني أنّ لها علاقة وطيدة باختفاء إيزابيلا.

تدخُل ماري عليهما، وهي تحمل في يدها القهوةَ التي أعدّتها لهما، ولكنّها دُهشت حينما رأت الألواحَ المتبقية من التّابوت في يد جاك، وجذبها حنينها إلى ابنتها؛ فراحت تلمسُ قطع الخشب قطعةً قطعة، وتولّد بقلبها شعورٌ بالأمل من جديد.

يسألها جاك: أين بقيّة التابوت المحترق سيدة ماري؟!

كانت واقفةً أمامهم، ولكنّها لم تكن تُدرك أو تعي أيًّا من حديث ماريو أو جاك، كانت غائبةً عن العالم، تسبح خلفَ شرودها في وجه ابنتها الغائبة،

تمسحُ الغبار من فوق قطَعِ الخشب بأطراف أصابعها. يرفع جاك صوتَه ويعيد السؤال مرّة ثانية: سيدة ماري، أين بقايا التابوت؟

تنتبه له، وتومئ برأسِها أنْ: حسنًا، تعالَيَا معي.

يسيرون نحو القَبْو بهدوءٍ شديد، بعضُ الأدخنة الخفيفة مازالت توجَد بالمكان، يصلان إلى موضع التابوت، ولكن من شدّة الظّلمة لا يستطيعان رؤيته بوضوح.

يحمل كلّ من جاك وماريو التابوتَ المتضرّر من النار إلى خارج القَبْو، ويصلان به إلى الحديقة الخلفية؛ فبابها قريب جدًّا من القَبْو، وهي أقربُ نقطة للضوء، كَادَا يصِلَا إلى وجهتهما، ولكنْ سرعان ما سقط ماريو في الممرّ المؤدّي إلى باب الحديقة، ولَم يستطعْ أن يخطو بقدمِه المصابة خطوةً أخرى دون عكّازه الذي تركه بالقَبْو، ولم يستطع حمل التابوت مع رفيقه جاك.

أجلسه جاك وتساءل: لَمَ لَمْ تخبرني بأنّ قدمك مصابة يا صديقي؟ فتجيبه ماري: لقد سقط من فوقَ صهوة حصانه أوّل أمس، يحفظك الربّ يا عزيزي.

يميط رباطًا خفيفًا من فوق جروحه، ثمّ يرفع صوتَه ويقول: يا إلهي!ما كلّ هذه الدّماء التي تسيل منك؟! إنّ قدمك تنزف بشدّة، هيّا أرني ماذا أصابك؟! يبدو أنّ جرحك كبير وعميق!

يمدُّ جاك يدَه لصديقه قائلًا: هاتِ يدك. فيدفعها ماريو برفق: أنا بخير يا عزيزي، جرحٌ صغير لا تُحمّل الأمورَ أكثر ممّا تحتمل.

إنّ يدك ساخنة جدًّا، ورأسَك أيضًا، يبدو أنّك مصاب بالحمى! هيّا قِفْ معي الآن، لنْ أدعك على تلك الحال.

يسانده حتى غرفته، ثمّ تلحق بهم ماري، وهي تحمل بين ذراعيها وعاءً به بعض الضّمادات اللازمة لتعقيم الجرح، وإناءً به ماءٌ من أجل تخفيف الحمى.

تخرج ماري من الغرفة، فيدير جاك رأسَه نحو ماريو بعد أنْ أخذ مجلسه بالقرب من قدمه المصابة؛ ليتمكن من تبديل الضّماد، وما إنْ أزاح جميع الأربطة من حول القدم المصابة حتى صُعق من هول ما رأى؛ فحوّل ماريو رأسه بعيدًا؛ حتّى لا تفضحه عيناه أمام صديقه الذي تمرّس في فنون الطّب قبل أن ينقطع لخدمة الرب.

يسود المكان لحظاتٌ من الصّمت الممتلئ بالأحاديث التي تشتعل بها الأفئدة صخبًا واضطرابًا.

وبعد لحظاتٍ من الصّمت المطبق أخذ جاك يتغنّى بنشيد الأصدقاء الذي كَانَا يحفظاه معًا ويردّداه سويًّا منذ أن كَانَا صغيرَيْن، فينظر إليه ماريو وكانت ترتسمُ على وجهه ابتسامةٌ خفيفة، ولم يزدْ عليها، حتّى داهمه جاك مستفسرًا: يبدو يا عزيزي أنّ الحصان أوقعك في شَرَك أحدهم! يقول ماريو في نفسه: لقد افتُضِح أمري!

- ماذا تقول يا جاك؟

أقول: إنّ قائد الشّرطة لوبيل يبحث عن أحد الرجال، قدمُه بها نفس تلك الجروح، وأعتقد أنّه لو رأى ما أرى الآن فلن يتردّد في اعتقالك ووضعك بالسّجن يا صديقي.

حاول ماريو الإنكار؛ فقال له جاك: بم تُفسّر وجود هذه الجروح الغائرة حتّى عظامك؟ وكلّ تلك الآثار التي إن نطقت لنْ تخبر إلّا بعضّة الفخّ الحديديِّ لقدمك؟ ألهذا الحدّ تريد إيذاء الرجل! يمكنك الامتناع عن الزّواج من ابنته بطريقة لائقة يا صديقي.

يتنهّد ماريو وهو يقول لصديقه الذي بَدَا مستنكرًا: لن تفهمني الآنَ يا جاك.

– إذًا.. أجبني، لماذا بيت قائد الشّرطة؟ وما الذي دفعك إلى الإقدام على مثل هذا الفعل المشين يا ماريو؟!

– أراك تتّهمني يا جاك، فكيف تساورك الشّكوكُ وأنت منّي كنفسي التي بين جنبي؟

– اعلمْ يا صديقي: أنْ تبقى كاملًا بلا شقوقٍ أمرٌ يستدعي لقلبك كلّ الأقنعة، وتلك الشّقوقُ في صدرك خيرٌ لك من زيفٍ يُهلك براءتك، وأنتَ لا تستطيع إخفاء الذّنب يا صديقي، فقط مُدّ لي يد العون وأفهمني؛ ربما أستطيع مساعدتك، فقائدُ الشّرطة يبحث في كلّ أرجاء البلدة عن ذاك الشّخص الذي حاول اقتحام بيته ليلًا، ومن سوء حظّ هذا المقتحم أنْ سقطت ساقه في الشّرك الذي أعدّه من أجل حماية بيته من اللصوص

والمعتدين بعد أنِ ازداد عددهم، وكثرت هجماتُهم على بيوت ومنازل وجهاءِ البلدة في الآونة الأخيرة، فلوبيل ورجاله يعلمون يقينًا بإصابة المقتحم في قدمِه، وقد تطاير إلى مسامعي من نبأ التّحقيقات الجارية أنهم أصبحوا على مقربةٍ من كشف حقيقة المقتحم بعد أن أدلت ابنة قائد الشّرطة بشهادتها حول وصفِ وماهية المعتدي.

اختنق ماريو، وانهار باكيًا.

– لم أكن أنتوي مهاجمةَ البيت، كنت أريد رؤيتها فقط.

جاك: مَن تلك التي أردَتْك على وجهك صريعًا، وجعلتك تستبيح بيوتَ القوم؟!

– إنّها فيولا ابنة قائد الشّرطة، إنّني أحبّها يا جاك، أحبّها بجنون، ولم أذقْ للنوم طعماً منذ أن رأيتها أوّل مرّة.

كان جاك يدير ظهرَه لماريو، فالتفتَ إليه مسرعًا كأنّه لم يفهم مقولة ماريو، وأعادها جاك ثانية: هل قلتَ لي إنّك تحبّ ابنة قائد الشرطة؟

– نعم يا جاك، أحبّها!

– وهل هي تحبّك؟!

– نعم، لقد قالت إنّها تحبّني، وأخبرتني بذلك عندما ذهبتُ إلى بيتها، وهي مَن ساعدني لنزع قدمي من الشّرك.

أصابت ماريو رعْدة، وراح ينتفضُ من الحمى.

– آه يا صديقي، لطالما كنت لا تودّ أنْ تراها، والآن تتمنّى رؤيتها ولو طيفًا عابرًا!

هكذا يفعل الحبّ بقلوب البائسين، يزرع فيها لهيبَ الحياة لتنضج أفئدةُ المحبين في تنّور من المشاعر دون أن تخمد أو تحترق!

– أتعلمُ يا جاك؟ منذُ اللحظة الأولى سكنتني تلك الفتاة، وكأنّنا لم نكنْ غرباء أبدًا، ولأوّل مرّة نلتقي كنت أعرفها وكانت تعرفني، كانت أرواحنا مليئةً بالحبّ، سلّمت عليها فسرقتْ نبض قلبي، ولَم أكنْ لأعلم يومًا أن يتملّكني مثل هذا القدر من القلق لمرور يوم دون أن أراها، وإنْ كنت لا أنطق بحروف اسمها، فأنا لا أعرف مِن الدّنيا حروفًا تسعد قلبي غيرها، ولم تشرقْ عليَّ شمسُ يوم قد امتلأت فيه عظام صدري بالهناء والغبطة مثلَ هذا اليوم الذي رأيتها فيه، ولم أجد ألمًا تشتدّ فيه الأوجاع على نفس المرء أكثرَ من ساعةٍ يقضيها المتحابَّيْن في بعدٍ أو فراق يكون لهما في إبطال استمراره يد، ولا يستطيعًا لذلك سبيلًا، فساعةُ الهجر ساعةٌ من الظلم، وساعةُ الوصل ساعة الحقّ التي تشرق لها في النفس الواحدة أضواء لا تنفد من السّعادة والسرور.

– صديقي ماريو، لقد أصبحت شاعرًا يا عزيزي!كم أنا سعيدٌ لأجلك.

مِن تحت وسادة ماريو برزت صورةٌ لفتاة غاية في الجمال والحُسن، على الرّغم من أنّ الصورة لم تكتمل بعد. فسأله جاك بعد أنْ حرّك وجدانه الفضولُ عَمَّ إذا كانت هي صاحبة هذا الوجه الجميل؟

فأجابه: نعم، إنّها هي، وأظنّ أنني لم أستطع نقلَ كلّ حقيقتها الجميلة على هذه اللّوحة؛ فأنا لم تقع عيني على مَن هي أجمل منها.

قال جاك: لو أعطينا أذنًا لكلّ ما يقال لما رأينا الجمالَ الكائن في كلّ ما حولنا، كلامُ الناس يصنع أسوارًا من الأوهام لكلّ شيء تلمسه ألسنتهم يا صديقي.

- صدقت يا جاك.

ينظر إلى صورتها الماثلة بين كفّيه، ويسبح في فضاءٍ بعيد، لقد تذكّر تلك اللحظة التي اختلطت فيها دماؤهما ببعضِها البعض، وكانت تعلو ملامحه بشاشةٌ كلّما عانقت خياله برقّتها، وسبح طيفُها في بحر أفكاره، كان يمعن النّظر إلى صورتها، وصديقُه يراقبه مغتبطًا مسرورًا لأجله؛ فيلتقط له في ذاكرة قلبه صورًا أخرى يملؤها الإخلاص والحب.

كان جاك قد أنهى تعقيمَ الجروح، ومن ثَمَّ لفّها بالضّمادة. أخذت حرارةُ ماريو بالانخفاض شيئًا فشيئًا، ثمّ غلبه الإرهاقُ فغشيته على إثره سِنَةٌ من النّوم. مضى الوقت ولم يشعرْ بوجود جاك الذي أخذ يبدّل له الكمادات واحدةً بعد أخرى.

إنْ غلبتْ مشيئةُ الرّحمن قلوبَنا فلمْ نملكها؛

فاللهُ وهبنا الفضيلةَ دونَ أنْ نسأله.

صفاء الفقي

(١٦)

وفاةُ خوسيه

يسمع جاك صوتَ صرخات تتعالى في البيت؛ فيخرج من غرفة ماريو مسرعًا مُتتبِّعًا مصدرَ الصّوت المنبعث من إحدى الغرف القريبة منه، يهرول مسرعًا مُتتبِّعًا أثرَ الصّيحات التي يتردّد صداها في أرجاء المكان.

كانتِ السيدة ماري تحاول تحريكَ السيد خوسيه بقوّة، وقد بدا شاحبًا وجامدًا في مكانه؛ تُقلبه مرّة يمنيًا وأخرى يسارًا عَلَّها تجد فيه بقيّةً من الحياة، ولكنّ برودة جسده أصابتها بخيبة الأمل، تقول: أجبني، أرجوكَ يا خوسيه، لا تتركني يا عزيزي، لا ترحلْ عني، أتوسّل إليك. وما لبثت ترجوه حتّى انهارت على صدره باكيةً تنوح ثكلى!

يدخل جاك مسرعًا، فتهرع إليه وتجذبُه من يده نحو سرير فقيدِها، وتضع يدَه على رأس خوسيه، وتقول له: أرجوك أيّها الأب، ساعدني، إنّه لا يتنفّس!

طلبتْ منه أنْ يخبرها بشيء غير الذي تراه بأمّ عينيها، فيتحسّس نبضَ خوسيه فلا يجده، يحاول سماع صوت قلبه ولكنْ دون جدوى، لقد رحلَ رفيقُ دربها مُخلفًا وراءه عذاباتِ الفقد وألمَ الرحيل الذي يشقُّ على نفسها أن تتحمّله، ويصعب على قلبها تصديقُه، وروحها تَئِنُّ تحت وطأته بعقلٍ شريد مُمزّق بين فراق ابنتها إيزابيلا ورحيل خوسيه!

السّيدة المسكينة تصرخ: أيّها الأب جاك، أعدْه إليَّ، إنّه لا يتكلّم، انظر! إنّه لا يتحرّك!

التفتَ لها وهو آسفُ الوجه، حزينُ القلب، شاحبُ الملامح، قائلًا لها: عليك أنْ تتحلّي بالقوّة والشجاعة سيدتي. ربّت على كتفها بعد أنْ أغمض عينَيْ خوسيه اللّتَيْن حَدَّقَتَا إلى أعلى، وشمل وجهَه ورأسه بالغطاءِ الذي كان يعلوه.

كان أملًا كاذبًا ذاكَ الذي وضعتْه في جاك، فتدخل مرّة أخرى في حالةٍ من الصّراخ والعويل بعد أن انكبّت على زوجها تبكيه بحرقةٍ ووجعٍ عظيمَيْن، انجذب أيضًا إلى صوت صراخها ولدُها الصغير "فابيان"؛ فتضمّه بين ذراعيها وهي تبكي، فيسألها: ماذا حدث يا أمّي؟ فلا تجيب!

وما عساها أنْ تقول لصغيرها الذي لنْ يعي قلبُه الغضُّ إلّا نارَ اليتْم الذي طوّقه وهو في مُقتبل الحياة، تتمتم والدّموعُ تنسكب كالأنهار من عينيها، غاب مَن كان يحمل همّ مستقبلك وغدك المشرق يا صغيري.

كانت تبكي مجدًا لم يكمله خوسيه له ولأختِه المفقودة، فالآباء وحدهم هُم مَن يصنعون الأمجاد لأبنائهم.

في صبيحة اليوم التّالي، توافدت الحشود لتشيِّع جثمانَ خوسيه. كان الحضور كثيفًا، وعددُ الناس أكثر مما توقّع ماريو والقس جاك.

أحدُ سكّان البلدة يُحدّث رفيقه قائلًا: مَن كان يظنّ أو يصدّق أنّ خوسيه البخيل سيموت بنفس اليوم الذي سيموتُ به أكرم رجال البلدة؟ إنّها لمن أعجب المصادفات يا صديقي.

كَانَا قريبَيْن من القسّ جاك الذي سمع حديثهما الجانبي، فاقترب منهما، وقال لهما: يا رفاق، إنّ هذه الأرض تبتلعُ كلّ يوم الصّغيرَ والكبير، الغني والفقير، الحزينَ والسعيد، البخيلَ والكريم، الجميع يرحلون دون أثر، فأنتم اليوم تُشاهدون تلك النّعوش بأعينكم، وغدًا تُشَاهَدون بعيونِ غيركم، من أجل تلك اللحظة عليكم أن تتركوا خلفكم الذّكرى الطيّبة وحسب. عندئذٍ نظر كلّ منهما إلى صاحبه، ثمّ قَالَا: صدقت.

كانت الأجواءُ حول المقبرة حزينة، كلّ الواقفين اكتحلت أعينُهم بدموع الأسى. بعد انتهاء مراسم الدّفن وقفت ماري وابنُها فابيان وماريو وقائدُ الشّرطة لوبيل عند قبر خوسيه، ولكنّ السيدة ماري تحاول أنْ تُظهر شيئًا من الثبات حتّى لا يتأثّر صغيرها؛ فهو كلّ ما تملك من الحياة بعد اختفاء أخته وموت أبيه، فتبكيهما بعد أنْ تقطّعت أوصال كبدها قهرًا وحزنًا وألمًا، ولسانُ حالها يقول: فواجعُ دهْري كلّها بقلبي! وكادتْ تتهاوى أرضًا؛ فجثتْ على ركبتَيْها، وقبضت على رماد الأرض بحسرةٍ ووجع، ولم تستطع كبحَ نار قلبها، وأخذت تنوحُ بلوعةٍ وألم.

فيوقفُها ماريو الذي كاد يسقطُ بجانبها، فيُهرع إليه مُعاونًا صديقه جاك الذي لاحظ مراقبةَ قائد الشّرطة لوبيل لعرجتِه وعكّازه، فهو لم يكفّ عن استراق النّظر إلى قدمه طيلةَ وقت الجنازة، فقد وقع ماريو اليوم في شِباك شكّ قائد الشّرطة!

وبعد وقتٍ ليس بالقليل خرجوا جميعًا، ركب قائد الشّرطة عربته وانطلق إلى بيته، ولكنّه لم يستطع مقاومة فكره بعد أنْ دبّت بقلبه نيرانُ الشّك،

الأمرُ الذي جعله يفكّر في إصابة قدم ماريو في هذا الوقت تحديدًا، عقله البوليسيُّ يعمل دون هوادة!

ثمّ عاد مرّة أخرى يُحدِّث نفسه قائلًا: لا أظنّ أنّ ماريو يفعل هذا؛ إنّه شابّ مهذب.

يصلُ إلى بيته فتراه فيولا التي ما إنْ وصل أخذت تُلحّ عليه في أن يأذن لها بالذّهاب إلى بيت خوسيه لتواسي زوجته وابنه الصغير.

أثناء حديثها إليه انتبهَ إلى أطراف أصابعها المضمدة بالأربطة؛ فبادرها متسائلًا: ماذا أصابَ يدك؟ تلعثمت وتأتأت، ثمّ عاجلها عقلُها بكذبة تنطلي على عقله البوليسيّ؛ فقالت: لقد جرحتُ يدي وأنا أقطعُ بعض الفاكهة.

لم تنتبه إلى أنّه علم بكذبتها لمجرّد أنْ تلعثمت وظهرتْ عليها علاماتُ التوتر والتململ.

بصعوبةٍ بالغة ابتلع كذبتَها، ومرّرها لحاجةٍ في نفسه، اصطحبها إلى طاولة الطعام الممتدّة بأشهى ألوان الأطعمة، ثمّ سحب أحدَ الكراسي قائلًا لها: تفضّلي بالجلوس يا أميرتي الحسناء. لم تستغربْ مِن تصرّفه هذا؛ فقد تعوّدت منذ صغرها على مثل هذا الدّلال من أبيها الذي حاول إخفاءَ غيظه وتوتّره؛ فقال لها: فيولا، أعيريني انتباهَك وسمعك. ثمّ عاجلها بكلام ارتجّ منه كلّ كيانها عندما سألها قائلًا: هل رأيت ماريو ليلةَ حادث اقتحامَ البيت؟!

تغيّر لونُ وجهها إلى الشّحوب القاتم، وأُصيبت بصدمةٍ غير متوقّعة بعد أنْ كانت ضاحكة مستبشرة برقّة أسلوبه معها، أدارت رأسَها نحوه، وكان جالسًا على يسارها قائلةً: لا، لم أرَه غيرَ مرّةٍ واحدة عندما ذهبنا معًا إلى بيتهم لنواسيهم في إيزابيلا. سألها: هل أنهيتِ طعامك يا عزيزتي؟ لَمْ أرَ يدَك تمتدّ إلى الطّعام، يبدو أنّك حزينة من أجل السيدة ماري. قالت له: نعم، إنّني أحببت تلك السّيدة منذ أن رأيتها. وقف قائد الشّرطة وأمسك بيدها اليسرى، ثمّ دَخَلَا معًا غرفة مكتبه الخاصّ، ومن ثمّ أحكم غلقه من خلفه.

كانت تتسارع دقّاتُ قلبها، وكادتْ تنطقُ من شدّة ما تجد في نفسها من رعب وفزع، وتمنت لو لَمْ تَعِشْ تلك السّاعة، كانت تقول في نفسها: هل افْتُضِح أمري؟ وانكشفت حقيقةُ ما حدث لماريو؟ لحظاتٌ حبست فيها كلّ أنفاس الخوف، وأخذت تراقبُ أباها وهو يقلّب بين يديه عدّةَ أوراق كان قد استخرجها من إحدى أدراج مكتبه.

قال لها: أتيت بكِ إلى هنا لأحدّثك عن أمر مهمّ، ولا أرغب أنْ يتطاير منه حرفٌ واحدٌ هنا أو هناك.

استراحت وتنفّست الصّعداء، ثمّ قالت: كُلِّي آذانٌ صاغية، هاتِ ما عندك يا أبتِ.

قال: قبل وفاة خوسيه اتّفق معي على بيع حديقتَيْن كبيرتَيْن من أملاكه هو وأخيه ماريو، وهاتان الحديقتان سيجعلانني أمتلكُ أكبرَ حصّة من الممتلكات في هذه البلدة، وهذا سيعزّز من فرصتي لنيل أرفع الأوسمة،

وسيجعلني أقترب أكثرَ من حاشية السّلطة الحاكمة والزّمرة النّافذة في تلك المملكة، والآن وبعد وفاة خوسيه كنت أودّ أن تعاونيني لنقنع ماريو أنْ يتمّم ما اتّفقنا عليه أنا وأخوه؛ فقد نَمَا إلى علمي أنّه غير راضٍ عن هذه الصفقة.

قالت في تعجّب: وكيف أساعدك في هذا يا أبي؟!

وقفَ أمامها ثمّ وضع يدَه أسفل ذقنها قائلًا في دهاءٍ شديد: أنتِ الآن كبيرة وقادرة على تحمل تلك المسئولية، وفوقَ هذا أنت حسناء وجميلة، وهو معجبٌ بكِ منذ أن رآك أوّل مرّة، وأنا عمدت إلى صحبتكِ لتثيري انتباهه، وها أنا قد نجحت. الآنَ يا فيولا أريدك أنْ تجعليه يتعلّق بك أكثرَ وأكثر، وأنا أعدكِ أنْ يكون لك نصف تركة وأملاك خوسيه وأخيه ماريو، وأعدك ألّا أزوِّجك له؛ فهذا شرفٌ لا يستحقّه الرّعاع من أمثال ماريو. ما أريده منكِ أنْ تجعليه يتعلّق بك؛ فإذا فعلتِ أخذنا كلّ أموالهم دون أن نضطرّ لدفع فلسٍ واحدٍ يا عزيزتي.

ثمّ وقف يرجّل شعرَه ويمشطه أمامَ مرآة كانت مُعَلَّقة في منتصف حائط غرفة مكتبه، كان يقول: لا ينبغي أن يكونَ هناك مَن هو أغنى مني في هذه البلدة!

كانت تستمعُ إلى حديثه بشيء من الاشمئزاز، وتتساءل: كيف للمال أنْ يعمي بصيرةَ الأب ليجعل من ابنته سلعةً رخيصةً بهذا الشكل؟!

حظّكَ من البَساطة هو مقدارُ حظّك من الجَمال والسّعادة.

صفاء الفقي

(١٧)

اعترافاتٌ فيولا

أحدُ العاملين يحضر العربة، فتستقلّها فيولا وهي مُثقلة بالحزن، تُردّد في نفسها: لستُ مَن كنتَ تُؤَمِّل يا ماريو، وانحدرت على خدّيها قطراتٌ تترى من الدّموع، كلّما نظرت إلى أبيها جفّفتها بابتسامةٍ ذابلة، هي أشبه ما تكون بابتسامة المحكوم علي ه بالإعدام.

قائدُ الشّرطة من أمام باب المنزل يودّعها قائلًا: ابذلي جهدكِ، ولا تنسي ما اتّفقنا عليه. فتومئ برأسها أي: حسنًا. ثمّ طلبت من سائق العربة ينعطف نحو الكنيسة التي انتصبت بكامل بنْيتها على جانب الطريق المؤدّي إلى بيت خوسيه.

استأذنتْ ودخلت على أحد القساوسة الموجودين، ومن خلف السّاتر فاضتْ بكلّ أحمالها، وما هي مقبلة عليه من خديعةٍ كُبرى لمحبوبها؛ طاعةً لأبيها الذي لا تأمن مكرَه وبطشه.

قال لها القسّ من خلف الستار: كيفَ لَمن أنارَ الحبّ قلبه أن يخضعَ لظلمةِ الحقد، وأن ينساق لعتمة الظّلم؟

قالت: إنّ أبي سيجدُ الطريق المناسبة لينال منّي ومن محبوبي إنِ امتنعتُ عن تنفيذ مخططاته الماكرة!

قال لها: اذهبي إلى الخير، وقلبكِ سيهديكِ إلى الخلاص ممّا أنتِ فيه من حيرةٍ وألم، واعلمي أنّ الحبّ هو سبيل الفضيلة الأوحد، ولكن تذكّري دائماً أنّ الدّروب المؤدّية إلى تلك العاطفة السّامية لا تخلو من التضحيات؛ فهيئي قلبكِ لذلك، وانطلقي نحو مقاصدكِ النبيلة.

أنتِ فتاةٌ طاهرة، والله سيكون معك إنْ خالفت أهواءَ نفسك والشيطان..



وبقَدْر التّصنّع تكونُ التّعاسةُ والهُموم.

صفاء الفقي

(١٨)

عزاءٌ أمْ خديعة؟!

خرجتْ من الكنيسة وهي تعلم ما يجبُ عليها فعله!

كان الغروبُ يحتدُّ عندما وصلت عربتها أمامَ البيت الكبير، كانت أجواءٌ من الحزن والأسى قد عمّت أرجاء المكان، شيء من الوحشة يتردّد صداه في هذا البهْو الجميل. كان أحدُهم يستندُ على عصا وهو يتحدّث إلى إحدى الخادمات. طرقت على جانب الباب المفتوح أمامَها على مصراعيه عدّةَ طرقات خفيفة، فالتفتَ لها ماريو التفاتةً أنْسته ألمه وتعاستَه، وخَفَّفَت من وطأةِ حزنه، فأقبل عليها ومدَّ يده مُسَلِّمًا، فَمَدَّت هي الأخرى يدَها المضمدة، وافترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ يشوبها الحياء، لم يكنْ في استطاعتها كتمُها، وتَذَكَّرَا معًا ليلةَ الوقوع في الشّرك. وضع ماريو يده اليسرى على يدها التي قبضَ عليها، وهو يقول لها: آسفٌ لكِ، سامحيني يا فيولا، لم أقصدْ إيذاءكِ في تلك الليلة. تقاطعه قائلة: لا عليك، طمئنِّي على قدمكِ. فيقول لها: إنها بخير.

- تَقَبَّلْ خالص عزائي.

ثمّ سألته: أين السيدة ماري؟

وما إنْ أنهت كلماتها حتى سمعَا صوتَ الصّغير فابيان صارخًا: عمّي ماريو، لقد سقطت أمّي أرضًا!

فيهرعان إلى السلَّم المؤدّي إلى غرفتها في الأعلى، وما إنْ دَخَلَا على ماري حتى وجداها مُسجاةً على الأرض؛ فيحملانها ويضعانها بسريرها، تتحسّس فيولا نبضَها، ثمّ تقول: الحمد لله؛ إنّها تتنفّس، بعضَ الماء من فضلكِ يا ماريو.

يحاولان إفاقتَها بالماء تارة، وبالعطر تارة أخرى، وأخيرًا تستجيبُ لمحاولاتهما التي كُللت بضمّة حانية من فيولا لماري التي بَدَت ذابلةً وشاحبة، وإنّ الإنسان ليشقى عندما يفوته نعيمُ حاضره أكثرَ من ماضيه، ولا يكون الحزن مؤلمًا إلّا إذا افترشَ الأسى همَّه على الأنفس الثّكلى بكلّ ألوان الفقد والوجع.

بعد قليلٍ تدخل فتاةٌ بيضاء جميلةٌ زرقاءُ العينَيْن، ملامحُ وجهها تسكن ذاكرة كلّ مَن يراها، كانت الفتاة تحمل بين يديها بعضَ أنواع الطّعام، فقال لها ماريو: ضعي الطّعام هناك، وأشار فوقَ سرير السيدة ماري.

وقال للسيدة ماري: هذه خادمتُنا الجديدة "راشيل". تنحني راشيل كنوع من التّحية لهم جميعًا، وتخرج من الغرفة، تطلبُ فيولا من ماري أنْ تتناولَ بعض الطّعام حتّى تستطيع الوقوف على قدمَيْها، وحتّى تستطيع العناية بالصّغير فابيان.

كانت السّيدة المكلومة يكسوها الحزنُ بكلّ أطيافه الباهتة؛ فلا تُقبل على الحياة بشيء من أسبابها، فهي ترفض الطّعام والشّراب، ولكنّها وجدت في حديثِ فيولا سلوى لها، فتناولت من يدِها بعض لقيماتٍ وشربة ماء،

وجدت بهم للحياة رمقًا، واستعادتْ بعضًا من عافيتها التي سلبَها إيّاها شعورُ الحزن والفقد، لم يكنْ يعلم الصّغير فابيان شيئًا عن أوجاع الفقد، غير أنّه بفطرتِه النّقية كان كلّما رأى أمّه تبكي سارع إلى ضمّها بذراعَيْه الصّغيرتين، فيخفّف من آلامها ويذكّرها بأنّه جدير بحياتها القادمة، فينلْ حظّه من الأمان والطّمأنينة، ويسكن فؤادُها بسكونه؛ فهُما روحان بجسدٍ متّحد!

تقفُ فيولا تريد الرّحيل، فيمسك الصّغير فابيان بيدها، ويطلب منها البقاء ولو قليلًا. على الكرسي وفي الجهة المقابلة لسرير أمّه كانت تجلسُ فيولا، وبالقرب منها جلس ماريو الذي كان يسترقُ النّظرات إليها بين الفينة والأخرى، ولم يكنْ يدرك أنّ زوجة أخيه ستفطنُ إلى تلك النّظرات التي أفشت ما حواه صدرُه، وفضحت ما أسرَّه في نفسه، ورغم حزنها الشّديد ابتسمتْ لهما السيدة ماري، وأنشأتْ تقول: ربّما لا يكون الوقتُ مناسبًا لِمَا سأقوله الآن، ولكنْ حسبي أنني قد عاهدتُ نفسي من الآن ألَّا أكتمَ شيئًا جميلًا أراه صالحًا أو نافعًا لغيري، فقائد الشّرطة لوبيل والسيد خوسيه كَانَا قد اتفَقَا على خطبتكما، ولكنّه رحل قبل أنْ يرى هذا الحبّ الذي بينكما، وزرع السّعادة في قلبَيْكما.

عزيزتي فيولا وعزيزي ماريو، أنْتما تشبهان بعضَكما؛ فطهارةُ قلبيكما تمنح وجهيكما نوعًا نادرًا من الصّفاء والنقاء، يبدو جليًّا لكلّ مَن يراكما معًا، فأنتما خُلقتما لتكونَا معًا إلى الأبد، هذه شهادتي، وبحتُ بها الآن؛ لأنني لا أعلم متى تجمعنا الأيّام مرّة أخرى.

يتورّد خدُّ فيولا، ثمّ تنظر إلى أسفل، وبدتْ على ملامحها كلّ ألوان الخجل، وانعقد لسانها؛ فلم تكن تعلم ماذا تقول، فقلبُها يؤيّد حديث السيدة، وعقلُها يرفض حتّى لا يصل والدُها لمبتغاه.

ماريو أيضًا لم يخفِ سعادته بتلك الكلمات، ولكنّه آثر تغييرَ الحديث؛ فسأل فيولا عن والدها قائد الشّرطة لوبيل؛ لتجيبه: إنّه بخير.

كانت تنظرُ إلى الصّغير فابيان الذي خلدَ إلى النّوم، وأسلم رأسَه إلى الأحلام بجوار والدته، تستأذن السيدة في المغادرة، وقبل أنْ تخرج من الغرفة تضع قبلةً على جبين فابيان الذي أحبّها هو الآخر، وربّما رأى فيها حنانَ أخته إيزابيلا، أمسكتْ بيد السّيدة ماري وصافحتها، ثمّ قالت: أعدُكِ بالزيارة في وقتٍ قريب.

يخرج ماريو وفيولا معًا، فيلحظ وهو يسيرُ بجوارها أنّ بها شيئًا غريبًا، روحه وقلبه يحدّثانه بصدق عن خبر قلبها الذي يتلظّى على نار الألم.

فيسألها: فيولا، هل أنتِ بخير؟

تُضيع الكلام في اللّحظة التي كانت في أشدّ حاجتها للبوْح والإفصاح، كانت تقاوم إرادتها بحزمٍ شديد؛ فاكتفت بقولها: نعم، أنا بخير.

كانت تظنّ أنّها بتلك الإجابة قد فرّت مِن بوحِها المتكسّر على جنبات وجهها؛ خوفًا عليه من ضرٍّ يصيبه، وتكون هي إحدى حلقاته؛ فأسرّت في نفسها ما يُخيفها وما يؤملها.

ولكنّ ماريو رغمَ حزنه وألمه الشّديد على أخيه خوسيه فإنّه كان قادرًا على استشعار كلّ معاني الحزن في قلب محبوبته فيولا، ولا يكون الحبّ صادقًا بين طرفَيْن إلّا إذا تَغَلَّبَا فيه على الغرائز الحيوانية بالمشاعر الإنسانيّة النبيلة الحقّة، ولن يكونَ قلب المحبَّيْن شفيفًا نقيًّا إلّا إذا تجرَّدَا فيه من رداءِ النّفس السفلي إلى سموِّ الروح العلوي.

ها هو يمسك بيدِها المجروحة، ويذكرها بدمائهما التي تجري حاملةً حبّهما في كامل جسدَيْهما، وسألها ثانية وألحَّ عليها في تلك المرّة، ثمّ قال: لن أتركَ هذه اليد حتّى تُخبريني ما بكِ، كان الخطر وشيكًا عندما أنقذتني من الشّرَك؛ فأنا أدينُ لكِ بالكثير يا عزيزتي.

كَانَا واقفَيْن في بَهْو البيت، وارتأى له أنْ يأخذها إلى حديقة البيت؛ ربّما تفصح عمّا يجول بخاطرها، وما يشغل بالها كلّ هذا الشّغل، فَجَلَسَا بالقرب من شجرة التّفاح. كانت قناديلُ الزيت المُعلَّقة بالقرب من الحديقة تضفي نوعًا من الرّاحة والسّكون على المكان، وكانت الألفةُ بينها وبين ماريو تتجاوز حدودَ العشق الذي يبذل فيه النّاس من أعمارهم عَنَتًا وشَوْقًا وإحراقًا، كَان يجمعهما حبٌّ خلصت فيه نواياهما، وانسجمت فيه قلوبهما انسجامًا طاهرًا، فهي لم تتطلّع منه على أكثرَ مِن أن يكون رفيقًا صالحًا تكمل حياتها بجانبه، فترى فيه حنانَ الزّوج، وعطف الأب، ومساندة الأخ، وتأنس بصداقته.

ثمّ باحت له بمخطّطات والدها، وأخبرته بأنّها لا تستطيع تنفيذ ما طَلبه منها، وانهارت بالبكاء؛ فضمّها إليه، وتفهَّم أسبابَ خوفها وحزنها.

كان هناك مَن يراقب هذا المشهد في خُبثٍ ولؤم شديدَيْن، إنّها الخادمة الجديدة "راشيل"، وقد استمعتْ لكلّ الحديث الذي دار بينهما منذ أنْ كَانَا بالأعلى.

لقد كانت تحبسُ أنفاسها، وتعقدُ حركتها كأنّها جمادٌ أصمّ، ولكنّها أطلقت يدَ أذنها؛ لتسطو على كلّ حرف ينطقُه كلّ من الحبيبَيْن الآمنَيْن تحت شجرة التّفاح.

تسوقُ العناية الربانيّة جاك ليطمئنّ على صديق عمره ورفيق دربه بعد يوم طال عناؤه، وزادت مآسيه بوفاة أخيه خوسيه، كاد يدخلُ البيت، وكأن من سماته الهدوء حتّى في مشيته، وهكذا هُم الرّحماء المخلصون يمشون على الأرض هونًا، خطواتهم تلامسُ الأرضَ سلامًا.

ولكنّ عينه وقعت على راشيل التي لم تشعرْ بقدومه، فشاهدها وقد اتّخذت موضعًا قريبًا من جلسة فيولا وماريو، وهُما لا يدريان بها؛ فهُما يتحدّثان مطمئنَّيْن، حفّتهم سكينة الألفة بروح الودِّ، وعمَّهم الأمان بنوره، وأظلّهم القرب بجناحيه، وما من حبّ يغفل فيه المتحابّان عن شيء من مساوئ الدّنيا ويغلب فيه الإخلاص إلّا كان حبًّا صادقًا تولد فيه الحياةُ بكلّ ألوانها المتآلفة، وتوأد فيه كلّ الأطماع بأوزارها وأرزائها.

حدّث جاك نفسه قائلًا: كنت أعلمُ يقينًا أنّ قائد الشّرطة لوبيل لن يمرّر إصابة ماريو، وإرساله لتلك الخادمة في هذا الوقت ليس رحمةً بالسيّدة ماري وإشفاقًا منه عليها كما كان يدّعي!

سارَ نحوها ببطء وحذر شديدَيْن، حتّى أمسك بها فلم تستطعِ الإفلاتَ من قبضته، كانت تقاومه وتريدُ الفرار بنفسها حتى لا يُفتضحَ أمرُها، ولكنّ جاك لم يدع لها مجالًا لذلك؛ فأخذت تستصرخ ماريو بأنْ ينقذها من هذا المعتدي الماكر، كان حظّها عاثرًا فلم تكنْ تعلم قوّة العلاقة الأخوية التي تجمع سيّدها بهذا الرّجل الطّيب، وهي بكامل قبحها تفتري عليه لتلوذَ بجريمتها!

ذاهلًا ممّا يحدث، يقول: دعْها أيّها الأب! فيعاجله: إنّها كانت تتجسّس عليكما.

يقفان مشدوهَيْن من فعْلِها المشين، كلّ من ماريو وفيولا!

يضعُ جاك حول يديْها رباطًا، ويحكم وثاقَها بجذع شجرةٍ كانت بالقرب منه، ثمّ يقول لها: صباحًا سنذهب بكِ إلى شرطة البلدة المجاورة؛ فأنا أعلم أنّكِ هناك ستنالين عقابكِ.

قالت راشيل- تستجدي عطفه، وقد سكبت دموعها حَرَّى-: لقدْ أَمرني سيّدي قائد الشّرطة لوبيل بفعل هذا، ولو لمْ أفعل ما يريدُ سيقتلني يا سيدي.

كانت فيولا واقفةً تراقب ما يحدث في صمت مُطبق، وما كان اعتراف راشيل إلّا بداية أخرى لمعرفة النّية التي بَيّتَها أبوها ليتمكّن من الفتْك بماريو؛ فخارت قواها أرضًا، وهوتْ في عمق آخر من أغوار الرّجل الذي تربّت على يديه، تحاول عدمَ تصديق ما يحدُث حولها، فهي كالغريق الذي أوى إلى غريقٍ آخر، كلاهما يظنّ أنّه لا نجاة له إلّا إذا تشبث برقبة صاحبه،

وكلاهما في فم الموت سيَّان، كلاهما طعامٌ له، طال وقتُ مقاومتهما أم قصر، كانت تَبكي لحالها وتتألم؛ فيقترب منها ماريو ويربّت على كتفها قائلًا: أعاهدكِ أنْ أتحمّل أيّ شيء ما دمتِ بخير يا فيولا.

تتوسّل لهم راشيل بأنْ يطلقوا سراحها على ألَّا تخبر قائد الشّرطة بأيّ شيء، وقالت إنّها ستذهب إلى أهلها في إحدى ضواحي القرى البعيدة عن تلك البلدة.

همسَ جاك في أذن صديقه: لا تثقْ بها، إنّها كاذبة. ولكنّ ماريو رَقَّ لحال الفتاة المكبلة بأصفاد العدالة، وأصرّ عليه أنْ يخلي سبيلها؛ فهي لا ذنبَ لها.



نحنُ نسْتمهدُ الرّاحة دونَ عمل، ونرجو القبولَ دون إخلاص..

والنّوايا شموسُ الظواهر..

وما العلمُ بالأشياء إلّا نتاجُ كدٍّ وجهدٍ عظيميْن.

صفاء الفقي

(١٩)

بزوغُ الحقيقة

تصلُ فيولا إلى بيتِ أبيها بعدَ ساعات قضتْها في بيت خوسيه، وما إنْ نزلت من العربة حتَّى جذبها أبوها من ذراعها بقوّة، ثمّ أمسك بيدِها المصابة، فزادها ألمًا فوقَ ألمها، لقد كان ثائرًا؛ فقال لها: لقد أضعتُ حياتي من أجل توفير المعيشةِ الطّيبة لكِ، فلماذا فعلتِ بي هذا؟!

قالت: ماذا فعلتُ يا أبتِ؟!

قال: لقدْ خدعتِني، وأحببت هذا التّعيس ماريو! وذهبت إليه ليفتضحَ مخطّطنا عنده، فلماذا يا فيولا؟!

نزعَ من فوق الحائط سوطًا غليظًا، ثمّ خرجَ من البيت قائلًا: أنا سأريه هذا اللّص كيف يقتحم بيتَ قائد الشّرطة لوبيل؟!

تتوسّل فيولا إلى أبيها بألَّا يؤذي ماريو، ولكنّه لا يستمع لها؛ فنداءُ الشرّ قد أعماه عن رؤية قلبها الذي يتمزّق بين ضلوعِها، وقبل أنْ يركب عربته منفردًا تمسّكت به راشيل التي نقلت له خبرَ ماريو. يصل قائد الشّرطة أمام بيت خوسيه، ولكنّه لم ينزل من عربته، كان الوقت متأخرًا.

ماريو مازال مستيقظًا يسيرُ في غرفته تارة يمينًا وتارة يسارًا، لقد فارقته لذّةُ الكرَى بعد أنِ استحوذت الأفكار على عقله، وجالت بخاطره خواطرُ شتّى قطعتها جلبةُ خيلٍ بدتْ قريبة جدًّا من مسامعه، نظرَ مِن نافذته

العلوية التي تُطلّ على مدخل البيت ليستطلع ما يحدث بالخارج؛ فيجد قائد الشّرطة لوبيل في عربته مدرجًا في دمائه.

تحتَ جُنح الظلام لحقت فيولا بأبيها الذي غادرَ البيت ثائرًا مغضبًا، تشتعل في أوردته نارُ الثّأر والانتقام من حبيبها ماريو. كانت تركض خلفَ العربة وتناديه؛ عَلَّ قلبه يلينُ لها، ولكنّه لم يفعل، فضجيج العربة وصهيل الأحصنة قد غطّيَا على صوتِها الرقيق الضّعيف، لم تكفّ عن الركض خلف عربة أبيها على الرّغم من ابتعادِه عنها وازدياد الفجوة بينهما؛ ليجتمع على قلبها وحْشَتان في آنٍ واحد: ظلمةُ الليل، وظلمُ أبيها!

في منعطفٍ من الطريق الذي سلكه قائد الشّرطة تمكّنت من تقليل المسافة بينهما بالقفز من أحدِ الحواجز؛ مما جعلها على مقربةٍ من العربة؛ فرأتْ بعينها ما لم تكن تودّ أن تراه أبدًا؛ فالخادمة راشيل تنهال على والدها طعنًا بالسكين، ومن ثَمَّ تقفزُ من العربة، وتفرُّ ليبتلعَها الظّلام بين فَكَّيِ العتمة!

يفيق قائدُ الشّرطة فيرى بجانبه كلًّا من ماريو وابنته فيولا التي اتّخذت من كتفه وسادةً لتضع فوقها رأسها المثقل بالهموم والأحزان، كانت تخيم على ملامحها السكينة، ويعلو وجهها نورُ الأمان، في محاولةٍ يائسة يريد أنْ يقف فتؤلمه الجروح المتفرّقة في صدره، وتقيّد حركته، فيجد صعوبةً في التنفس، يَئِنُّ أنينًا مكتومًا، فينتبه له ماريو وتستيقظ فيولا من نومها فتُهرع إلى أبيها الذي كان يحتضنُها بكامل قلبه المصاب بكلّ جروح النّدم والأسى؛ فمشاعره ترشرش حسرةً وحرقة بعد أنْ أدرك خطأه، وعلمَ ألَّا

سبيل لتصحيح هذا الخطأ إلّا بمباركة حبّهما، فتمسك فيولا بيدِ أبيها، فيبادلها بابتسامة حانية، هي كلّ ميراثِها من السّعادة الأبوية منذ أنْ كانت طفلة، بعض الدّمعات تقاطرت من عينَي قائد الشّرطة وهو يوصي ماريو على ابنته طالبًا منهما أنْ يسامحاه، وأنْ يَهْنَئا بعيش رغيد في سعادةٍ وألفة وودّ، لم تمهله المنيّة ليكمل تمنّياته لهما؛ فغادرت روحُه إلى السّماء.

قالتِ التّحقيقاتُ أنّ راشيل كانت ابنةَ أحدِ الفلاحين الذين قُتلوا ظلمًا على يد قائد الشّرطة لوبيل، وقد قتلته انتقامًا لعائلتها التي تشرّدت على يديه.

وقد استعانَ بها قائد الشّرطة عندما أتته تعرضُ عليه أن تعمل عنده كخادمة؛ فأرسلها إلى بيت خوسيه لتعمل له كجاسوسة، ولكنّ نارَ الثّأر قد استعرتْ في قلب راشيل بعد أنْ رأته يظلم كلّ مَن حوله حتّى ابنته؛ فأنهت حياته لتريح العالمَ من شروره!

في صبيحة يوم هادئ، يقوم أحدُ المزارعين بتنظيف الحديقة الخلفيّة للبيت الكبير، فيجِد فتاةً نائمة في باطن التّابوت المُحترق، على الفور يُهْرع إلى ماريو الذي كان يتناول طعامَ الإفطار في بَهْوِ البيت مع صديقه جاك.

إنّ الودّ الذي يورقُ في رياض النّفس وصلًا.. ويورّث في شغاف الرّوح حبًّا.. ويبعثُ في سماء العقل فكرًا .. ويُبحرُ في فَلك الخيالِ صورًا.. ويسكنُ في ضمير القلبِ سِلْمًا؛ لهوَ الرّيّ لظمأ الحياة، وهو النّورُ الذي يضيء غياهبَ الظّلمةِ الحالكة...

صفاء الفقي

(٢٠)

عودةُ إيزابيلا

نائمةً يعلوها البهاءُ والجمال في ثوب أبيض مُزَيَّنٍ بحبّات اللؤلؤ كأميرةٍ من الملائكة نزلتْ من إحدى غيمات السّماء.

يلتفّ حولها الجميعُ في صمتٍ خاشع، يقطع هذا السّكون صوتُ أمّها ماري التي شَقَّتْ صفوفَ الفلاحين الذين تحلّقوا حول التّابوت مذهولين ومذْهوشين ممّا فيه، انكبّت تتحسّس وجه ابنتها برفق، ولا تكاد تُصدّق ما وقع نظرها عليه، قلبُها يرتجف، وتخشى أن يكون جسدُ إيزابيلا ليسَ فيه شيء من حرارةِ الحياة بعد أنْ بَدَا عليها شيء من الشحوب والإرهاق، يقوم ماريو بإبعادِ المزارعين الذين اجتمعوا حول التّابوت قائلًا: هيَّا، لينصرفَ الجميعُ من هنا، اذهبوا إلى أعمالكم.

كان مغشيًّا عليها، فحملها جاك إلى داخل البيت، ووضعَها على سريرها، وأمّها تحاول إفاقتها، ولم يمضِ وقتٌ حتى بدأَتِ الفتاة بفتح عينيها، وقامتْ بتحريك رأسها يمينًا ويسارًا تتفحّص المحيطين بها، لتجهشَ بالبكاء على كتف أمّها التي لم تدّخرْ شيئًا من دمع عينها وهي تضمّ ابنتها العائدة إليها بعد غيابٍ قُطعَ منه الأمل، ودبّت فَيه روحُ اليأس، ولا يعيد روح الحياة للعائد بعدَ غربة إلّا عناق تذوبُ له المسافات البعيدة خجلًا.

لم يكنْ ما مرّت به إيزابيلا ليصدّقه عقل؛ ولذا آثرتِ الصّمتَ والسّكوت.

لا شيءَ ينزَعُ منّا عنْوة، نحنُ مَن نفرّط كثيرًا

حين نحْسِن الظّنّ بمَن أساء لنا أكثرَ من مَرّة...

صفاء الفقي

(٢١)

مرضُ إيزابيلا

في جانبِ الممرّ المؤدّي إلى غرفة إيزابيلا كانت السّيدة ماري وماريو يقفان متهامسَيْن، ودار بينهما حديثٌ غلبَ عليه ما آلَ إليه حالُ الفتاة من تغيُّر في طباعها، وتبدُّل سائر كيانها!

قالت: أتعلم يا ماريو، لقد مرّ وقتٌ طويل على سكونها وصمْتها هذا، إنّها ترفض كلّ حديث، ولا رغبة لديها في رؤيةِ أحد، فكلّما اقتحمتُ عليها وجدتُها تبادرني بنظراتٍ مريعة، يغلبني عندها شعورٌ بالخوف منها، كأنّها ليست ابنتي التي ربّيتها وأعرفها، أتذكُرُ يا ماريو عندما أخبرتها بوفاةِ والدها ولَم تُبدِ أيّ ردّة فعلٍ مناسبة!؟ لقد ذرفت بضعَ قطرات من عينها ثمّ غابت في عالمٍ من الصّمتِ المطبق! بيدَ أنّ الفِطرة السليمة تقتضي تأثّرها واستجداء عاطفَتِها بإظهار شعور الفقْد والحزن على أبيها، ولكنّها لم تفعل! أرجوك يا ماريو أحضرْ لها طبيبًا آخرَ غير أولئك الذين سبقَ وأنْ أتوْا إليها.

فيقول لها: إنّ جميع مَن أتى إليها من الأطباء قالوا: هي بخير؛ فلا تقلقي بشأنها، دعيني أحاول محادثتها، فأنا سأخبرُها بموْعد زواجي من فيولا، ربّما تبادلني طرفَ الحديث، ولعلّني أقف على ما يدور بخلدها.

يطرق البابَ ثمّ يدخل حاملًا في يده اليُمنى وردةً بيضاء، كانت إيزابيلا واقفةً بشرفتها كعادتها شاردةَ الذهن، بين كفّيها ورقة توت، نصفُها يابس ونصفُها الآخر أخضر، وقف عمّها أمامَها مباشرة، ثمّ قَبَّل جبينها في رحمة وشفقة، ووضع الزّهرة في جانب شعْرها الأشْقر الجميل، ثمّ قال لها: أتعْلمين يا إيزابيلا، إنّني لم أنتبهْ لجَمال عينيك سوى الآن؟ يفترّ ثغرها عن ابتسامةٍ باردة، فيمسكُ بيدها بعد أنْ أخذ منها ورقةَ التّوت ووضعَها على حافّة الشّرفة. نظرت له وكأنّه قد اقترف ذنبًا بفعلته هذه، فأمسك بالورقة ودقّق فيها النّظر؛ ليجدَ عليها حروفًا تُشبه تلك التي كانت على حافّة التّابوت، عندها قال في نفسِه: ربّما تكون هذه الفتاةُ مسحورة!

وضعَ يديه في تودّد على جانبَيْ رأسِها طالبًا منها أنْ تُنبئه بمكنونها، أو بما تشعر، ولكنّها تصرف وجهَها بعيدًا عنه لتتحوّل إلى الجهةِ الأخرى، فيتبعها ليرى عينيها قد تغيرتَا واغرورقَتَا بالدّموع، فقال لها: أخبريني يا عزيزتي عَمَّا يؤلمك؛ عَلَّني أستطيع مساعدتك!

فحرّكت رأسَها يمينًا ويسارًا، وقالتْ في نفسها: لا أحد يستطيع مساعدتي، فلنْ أخون العهد.

تملّكتها رغبةٌ بالبوح، ولكنّها تذكّرت وعدَها لبرقان بعدم الإفصاحِ عن عالمه، وعنْ كلّ ما رأته فيه، حتّى يأذن لها بذلك، فاكتفتْ بالدّموعِ، ولاذت بالصمت.

فقال لها ماريو بعد أنْ أصابه اليأس منها: أريد أنْ أخبرك شيئًا لعلّه يسعدك. فأقبلت عليه بوجهها الشّاحب ولسانُ حالها أنْ قُل؛ فقال:

لقد تحدّد موعدُ زواجي أنا وفيولا يوم الأحد القادم. فبادرتْه بالعناق، وكانت هذه أوّل مرّة تُبدِي فيها ردّةَ فعلٍ تجاه مَن حولها، ثمّ قالت: مباركٌ يا عمّي، كم أنا سعيدةٌ لأجلك. فابتسمٍ قائلًا: سأكون أسعدَ لو رأيتُكِ بالحفل يا "إيلزا"!

هكذا كان يدلّلها منذ أنْ كانت صغيرة، عِديني بأنّك ستخرجينَ من هذه الحجرة إلى عالمكِ الذي أحبَّكِ، ومستقبلكِ الذي ينتظركِ، أتعلَمين يا عزيزتي أنّ المساكين والفقراءَ والأطفال في الطّرقات يسألون عنكِ؟ فالجميع يفتقد روحَكِ الخيّرة، وقلبكِ الطيّب الذي كان في يوم من أيّام الدّهر ملجأً لهم من الجوع والعَوَز، أتعلمين يا جميلتي أنّ قدركِ هو مساعدةُ المحتاجين؟

وهنا استجمعت بعضًا ممّا قاله لها برقان من أنّ قدرَها هو مساعدة الغير، فأومأت برأسها، ثمّ أطرقت لحديث قلبها، ومن جديد غرقتْ في بحرِ ذاكرتها.

لا شيءَ يقتحمُ سيادتَنا، نحنُ نمنحُهم الفرصةَ لصنع تلك الهوّة بداخلنا، فليسَ كلّ عابرٍ يُشعل الضّوء! بعضُهم يطفئ مصابيحَ الحُسْن فينا دونَ أنْ يرهقَه شناعةُ تلك الظّلمة التي لحقتْ بنا...

صفاء الفقي

(٢٢)

يومُ الزّفاف

كان المساءُ جميلًا ولطيفًا، تتخلَّله نسماتُ الشّتاء الآتي من بعيدٍ متسللًا الفيافي والأصقاع، معلنًا حلولَ فصل جديدٍ تتنامى فيه حاجاتُ الفقراء والمساكين والمشرَّدين في أنحاء البلدة، والبلدات المجاورة.

كانت منغمسةً في القراءة، مستلقيةً على جانبها تُقلِّب أوراقَ أحد كتبها المفضّلة عن الأساطير القديمة، حينما اقتحمَ عليها فابيان خلوتَها حاملًا بين ذراعيه قطًّا أبيضَ مُرَقَّطًا ببعض السّواد.

قال لها: انظري يا إيلزا، ماذا وجدتُ بجانب شجرة التوت؟ إنّه هرٌّ مسكين، لقد كان جائعًا فأطعمتُه، وأريدكِ أنْ تساعديني في إيجاد اسمٍ مناسب له.

علمتِ الفتاة أنّ القطّ حاز على اهتمام بالغ من أخيها، كان انشغالُ الجميع وانهماكهم في تحضيرات الزفاف سببً لجوئه إليها، وإلّا فهو يعلم أنّه لا ينبغي عليه أنْ يتسبّب لها في أيّ إزعاج، ولكن دفعَه إليها شوقه لوجهها الباسم، وافتقادُه لأيّام لعبها معه، نظرَ إلى شقيقته نظرةَ استجداء واستعطافٍ استقرّت في قلبها الذي فتك به الحزن فتكًا، وفتقت به الهمومُ فتقًا!

يَئِسَ منها ومِن معاونتها له، وتَوَلَّى مُدبرًا آسفًا، وقبل أنْ تقترب خطواته اليائسة من باب الغرفة نادته بصوت خافت: أقْبِل يا فابيان.

فيعود أدراجَه مسرعًا، وقد تهلّل وجهها بابتسامةٍ حانية، مسحتْ على رأسه، ثمّ حملت عنه قطّه، وأخذت تلامسُ فراءه الناعم بأطراف أصابعها، فتركَ لها الهرَّ وانصرف بعد أنْ سمع أمّه وهي تدعوه ليبدِّل ملابسه.

أحكمَ غلقَ الباب من خلفه حتّى لا تقع عين أمّه عليه، فهو يعلم أنّها لا تحبّ الهررة، ذهب مطمئنًّا على هرِّه الجديد بين يدَيْ أخته.

وبينما هي جالسة تتأمّل وتراقب حركةَ ضيفها ورفيقَ وحدتها الجديد الذي تغيّرت تصرّفاته فجأة، وانقلب ميزان سكونِه وهدوئه إلى حالةٍ من الفوضى العارمة؛ على إثْرها أخذَ يتناثر كلّ ما في الغرفة يمينًا ويسارًا حتّى عمَّت الفوضى أرجاء غرفتها، وكعادة إيزابيلا تتلقّى المُلِمَّات بهدوء تامّ ورزانة كاملة.

وهذا شأنها في كلِّ ما لقيته بعالمها الثّاني، لم تُكذِّب أذنها عندما سمعت القطّ وهو يحدّثها قائلًا: هل مازلتِ على العهدِ يا إيزابيلا؟ ليتلألأ وجهُها بالضّياء والنّور من جديد، وتدبّ في نفسها كلّ دقّات الأمل؛ فهذا الصّوتُ تعرفه كما تعرفُ نفسها، إنّه صوت برقان!

تطرقُ أمّها الباب لتجدَها على سريرها شاردةً واجمة، وقد عَمَّ المكان فوضى عارمة، فتفزع الأمّ إلى ابنتها؛ تخشى أنْ يكون أصابها مكروه، بصوتٍ خافت به نشيجُ المتصبرين تقول لأمّها: اطمئنّي يا أمّي، أنا بخير.

تبتسمُ ماري، وهي التي لم يَتَسَنَّ لها أنْ تسمع صوت ابنتها إلّا مرّة أو مرّتين منذ أنْ وقعت عينها عليها مُسجاة في باطن التّابوت المشئوم، تلحظ

ماري وجودَ قطّ فوق خزانة الملابس، فتقول: علمتُ الآن سببَ كلّ تلك الفوضى. تحاول تخويفَه ليخرج من الغرفة، ولكنّ إيزابيلا تنظر إلى أمّها نظرةً هادئة مطمئنة بعد أنِ اعتدلت من جلستها، وأشارت لها إشارة، فهمتِ الأمّ أنْ عليها ترك الهرِّ في الغرفة. تبتسم ماري وهي تفتح خزانةَ الملابس، ثمّ تُخرج منه ثوبًا أنيقًا، وتقول لها: حسنًا يا جميلتي، سأترك القطّ، ولكنْ عليكِ أنْ ترتدي هذا الفستان الذي أحضرته لكِ فيولا عروسُ عمّك، إنّه مقاسكِ تمامًا. لم تكدْ تُكمل حديثَها حتى سمعتْ ضجيجًا وأصواتًا تتعالى بالأسفل.

تخرج مسرعةً من عند إيزابيلا بعد أنْ أخذت منها وعدًا بأنْ ترتدي ملابسَها الجميلة، وأن تنضمّ إلى جموع المدعوّين بالأسفل.

ولكنْ كان هناك ما يشغل الفتاة، ويدفعها إلى مجاراة أمّها؛ حتّى تتمكّن أكثر من معرفة ماهية مُحدثها الذي اخترقتْ كلماته صنوانَ قلبها، ولم تجدْ سبيلًا غير سبيل الشّغف الذي ألقى رداءه فوق خافقها؛ ليدقّ في وجه الحياة من جديد، هُرعت تستطلعُ الممرّ، وبعد أنِ اطمئنّ قلبها إلى خُلُوِّ المكان من الناس، أَحكمت غلقَ بابها عليها، ثمّ قالت وهي تُدير عينها في أنحاء الغرفة: أينَ أنت؟ وكأنّها تطلب منه إيذانًا لحياةِ روحها التي راحت تبحثُ عنه في كلّ ناحية من الغرفة، حتّى عاد الصوتُ متسائلًا: لماذا تعكفين على أذى قلبي يا إيزابيلا؟!

فتجيبُ ولم يُساورها شيءٌ من العجب، وكيف أُؤذيك وقد سكنتَ قلبي، والتفّ حول غصن عمري هواك وحبّك!. استدارت لتنظرَ في المرآة

فإذا به ماثلًا أمامَها على صورته البشريّة التي ألفتها وأحبّتها؛ فبادرته بعناق طويل اختلطتْ فيه أنفاسُهما ونفسَيْهما حتّى صار كلّ منهما نفسَ صاحبه لا يفرقه عنه إلّا تلك الملامح المجتمعة في وجه كلّ منهما، فهو ينطق بما تنطق به، ويتحرّك بنفس حركتها، ويسكن بسكونها، ويأنس بها كما تأنس هي به، وهكذا كان لقاؤهما الأوّل في عالم البشر!

تبكي وهي بين ذراعيه، كانت تقول: حسبتني فقدتكَ، ولن أراكَ ثانية. فقال لها: بعد انتهاء المعركة كان يتوجّب عليَّ أنْ أحرّرك من القوّة التي منحك إيّاها زعيمُ الجن، ومن قيدِ تعويذة التّابوت، ولَم يكن ليحدث هذا إلّا برؤيتك لي وأنا أتَلاشى؛ لتفقدي تعلّقكِ بعالم المستقبل.

وما كان لي أنْ أتأخّر في مجيئي إلى عالمك، ولكنّ حروبنا قد طالت مع جبابرة الجزيرة، وما تركوا أوديتها وسهولها ونجادَها إلّا خرابًا يبابًا فسادًا وإفسادًا، وهكذا هُم الظالمون في كلّ زمان ومكان، لا يدعون موطنًا خاليًا من أرزائهم وقبائحهم. وقد آلَ إليَّ حكمُ بعض القبائل بعد هزيمة الجبابرة السّاحقة أمام الصّالحين من جيوش الجنّ بعد أن توحّدوا لدَحْر الظّالمين من الأرض المُحرَّمة.

فأكبرته في نفسها، وعلا شأنُه عندها، فهي في سعادةٍ تغبطها عليها كلّ أنثى!

أحدُهم يطرق الباب قائلًا: ألم تنتهِ يا حبيبتي؟!

- إنّها أمّي، وستغضب إنْ رأتني على حالتي تلك، ولم أتجهّز للحفل.

برقان لم يفوّت تلك الفرصة!

قال لها: أغمضي عينَك آنستي الجميلة. ثمّ أمسكَ بيدها، وأمامَ المرآة أوقفها، فتحتْ عينيها لترى نفسها في أبهى حُلّة، وبهيئة ملكيّة، تلفّتت إليه وضمّته إليها فرحًا، ثمّ همست في أذنه: أنت مَلِكُ قلبي، وتاجُ روحي، وعزُّ نفسي!

فبادلها هامسًا: أنت اليومَ يا حبيبتي أجملُ من أيّ عروس على وجه الأرض.

هَبَّت على وجهها نسماتُ الخجل والحياء الذي أكسبها حسنًا آخرَ على حسنها!

فأمسكتْ بيده قبل أنْ تخرج من غرفتها لتُلبي نداء أمّها: إيّاك أنْ تبتعد عن عيني مرّة أخرى.

قال لها ممازحًا: ربّما أراقصكِ في الحفل، ولا تعلمين مَن أنا!

تهبطُ ونفسها تفيض بالسّعادة التي بسطت رداءها على ملامح وجهها الملائكيِّ فهي تتلألأ لعيون الحضور، لا تُخطئها لهفتُهم عليها، بعد أنِ انقطعت أنفاسُهم في سكونٍ تام، وقد حُبست شهقاتهم في صدورهم، وأخذوا يتهامسون: مَن هذه الحسناء؟!!

وما إنْ لمحها عمّها ماريو- الذي أخذ مجلسَه بجوار عروسه الجميلة فيولا- حتّى طار فرحًا، وأقبل عليها متهللًا مستبشرًا ليمسكَ بيدها، ومقبِّلًا جبينَها، ثمّ همس في أذنها بكلماتٍ جعل ثغرها يفترّ عن ابتسامة تهلّلت منها كلّ ملامحها.

في الزّاوية المقابلة للبهْو أخذت إيزابيلا مجلسها حتّى يتسنّى لها رؤية العروسَيْن، ومن ثمّ مراقبة السّادة الحضور، فهي على موعدٍ مع حبيبها الذي وعدها بالحضور فوْرَ نزولها.

الجميع سعداءُ مستبشرون، إحدى الفتيات ارتقتْ منضدةً مرتفعة وأخذت تشدو بكلماتٍ جميلة جعلت كلّ مَن بالحفل يُردّد خلفها، الجميع يغني بصوتٍ واحد كأنّ حناجرهم قد اجتمعتْ في حلق واحد بلحنٍ عذب متناسق، يغردون بحماس بالغ.

تتعالى الصّيحات والضّحكات بعد كلّ أغنية ينشدونها سويًّا، ولكنّ إحداهنّ قد شغلت العيون بصمتها وعدم انْدماجها؛ فهي لم يكنْ لها أنْ تصبر على كلّ هذا الصّخب، وما أجلسها هذا المجلس إلّا ترقّبها لمن منحها تلك البهجة المرتَسِمة على صفحة وجهها.

بعد قليل، انغمست جموعُ مَن بالحفل بالرّقص والتمايل على أنغام الموسيقى، وإذا بشابّ وسيم يمدُّ لها يده في توقير واحترام: أتسمحينَ لي؟! كان يريد أنْ يرقص معها، شعرت بالحرج الشّديد، ثمّ قامت تراقصه على استحياء شديد.

قال لها: أعرّفكِ بنفسي، اسمي دانييل، أعمل طبيبًا، وقد التقيتُكِ سابقًا، ولكن يبدو أنّك لا تتذكّرين. لم تزدْ على صمتِها حرفًا، واكتفتْ بطأطأة رأسها، وابتسمت له ابتسامةً باردة؛ فهي لم تستطعْ مبادلة هذا المُعجب إعجابه، كانت تشعرُ بالأسف، وتمنّت لو أنّ برقان هو مَن يرافقها في تلك اللّحظات، ولكن هي لا تعلم أينَ هو الآن!

كان برقان يخوض حربًا ضارية على مقربةٍ من بيتها ضدّ مجموعة من جواسيس الجبابرة الذين لحقوا به؛ لينتقموا منه ومنها. كانت إيزابيلا مازالت ترتدي تلك القِلادة التي أهداها لها برقان وهي في عالمه، لم تخلعْها أبدًا، ولكنّها بقيت عليها كذكرى تربطها به للأبد.

شعرتْ أنّ القلادة ينبعث منها ضوءٌ خافت مع حرارة خفيفة؛ فانسحبت من الحفل بهدوء إلى ناحية الباب المُطلّ على حديقة البيت الخلفيّة، وقبل أن تختفي عن عيون الحضور لحقَ بها ذاك المعجب، ولكنّها لم تلحظ تتبّعه لها، ابتعدت إلى داخل الحديقة، وكلّما اشتدّت الظّلمة زاد توهّج قلادتها. كانت تشعر بالخطر، ولكنّها أقبلت عليه بكامل قلبها، وما إنْ وصلت ساحةَ القتال حتى تلقّفتها سهام الجبابرة؛ تحتمي خلفَ شجرة، ثمّ تردّد تعويذة الجناحين والاختفاء؛ ومن ثمّ تتحوّل، الآن تستطيع رؤيتهم بكلّ وضوح، كان عددُ الجبابرة يفوقُها بكثير، لقد استطاع برقان القضاءَ على عددٍ كبير منهم في أوّل الأمْر، ولكنْ في نهاية الأمر تمكّنت الكثرةُ من حسم الأمر؛ فأصيب برقان في مقتل، وهي كذلك أُصيبت؛ فتحوّلت أجنحتها إلى رمادٍ تطاير غبارُه في الأفق. لاحظ دانييل أنّ شيئًا غريبًا يحدُث هنا، فأسرع وأحضر مجموعةً من الشّباب المدعوّين في الحفل عَلَّهم يجدون الفتاة.

أدركَ الجبابرة عندما حضر البشرُ أنّهم في خطر؛ فهمّوا بالهرب بعد أنْ حملوا معهم برقان جثّةً هامدة.

كانت إيزابيلا ملقاةً على الأرض بين أعشاب وأشجار الحديقة، تنازع موتَتيْن مُحقَّقَيْن: فراق برقان الذي أخذ معه كلَّ أسبابِ حياتها، وإصابتها ببتْرِ جناحيها.

يبدو أنّها تعاني من مشكلةٍ في التنفّس، قال دانييل لأحد أصدقائه.

وقفت أمّها عند رأسها وهي تناجي السّماء: يا رحمةَ الرّب، كوني معها؛ إنّها فتاةٌ صالحة.



أثرُ الصّدماتِ العمريّة لا تُذهِبه الأيّام، ولا تمْحوه الخيوطُ التّجميليّة للمواقفِ اللاحقة.. كلّها محاولات بائسةٌ لترميم روحٍ تمزّقت من فرْطِ ظنّها الحسن.. فشوقُها بعدَ الشّتاتِ للعفْو كعصفورٍ ينظرُ إلى السّماء بحسرةٍ وقدْ كُسِرَ جناحُه...

صفاء الفقي

(٢٣)

حبُّ دانييل

مضى عامٌ وإيزابيلا قيْدَ فراشها دونَ حراك، لا تنطقُ بحديث ولا تطربُ لأحد، بهتَ لونها، وانكسرت أحلامُها بعد أنْ تاهت في سرابِ العمر خطواتُها، أحدُهم يطرق الباب، تفتح له أمّها، فيتهلّل وجهها بابتسامةٍ مبتورة، قالت له: لولا أملُك وإيمانك بأنّها ستتحسّن لمتّ قهرًا عليها!

يضعُ دانييل حقيبته الطّبّية بجوارها وهي مُستلقية، ثمّ يذهب إلى الجهةِ الأخرى من سريرها، ويرفع الأغطية من فوقِها، وأمّها تعاونه في رفع رأسها، ومن ثَمَّ يحاول أنْ يوقفها، فتأبى أنْ تقف معه، فيَحُوطها بكلتا يديه، ويحاول أن يجعلها تقفُ بعد أن أنزل ساقيْها الجامدتين من أعلى سريرها، قال لها: عاونيني مِن فضلكِ، ليس من أجلكِ، بل من أجل تلك المرأة الواقفة هناك، أرجوكِ، لا تكوني أنانيةً بتعاستكِ، فهناك أُناسٌ ينتظرون شفاءكِ!

بينما هو يتحدّث يدخل عمّها ماريو وهو يحمل بين كفّيه طفلَه الصغير الذي وُلِدَ منذ ساعاتٍ قليلة، وقفت لأوّل مرّة منذ عام بمفردها بعد أنْ رأتِ الصّغير، ولوهلةٍ نسيتْ علّة قلبها؛ فامتشقت شيئًا من نسيم الحياة!

نظرَ الجميع إليها ولسانُ حالهم أنْ عودي إلينا، نحن نمدُّ لكِ يدَ النجاة، فكوني معنا، يُسلفها الصّغير من براءته ابتسامةً فتبادله إيّاها على الفور، ثمّ قالت في نبرةِ صوتٍ ضعيف: ليحفَظْك الرّبّ أيّها الملاك الصغير.

لم تُنه كلماتها وانكبّت عليها أمّها تُقبّلها، وهي التي ظنّت أنّها ستموت قبل أنْ تسمع صوت ابنتها من جديد، تتماسك إيزابيلا شيئًا فشيئًا بعد انهيارٍ عصفَ بكلّ أركان روحها.

ويتلمّس دانييل حبَّه وهو يعودُ للحياة من جديد، بعد أنْ كاد يفقدُه قبل عامٍ من الآن!

سريعًا تمرُّ الأيّام، وتتحسّن صحّتها، ثمّ تتردّد على الكنيسة يوم الأحد من كلّ أسبوع، وتألف الحديثَ مع إحدى الرّاهبات التي أحبّتها حبًّا شديدًا، ورأتْ فيها من الحكمة ما يجعلها تأمنُها على سرّها الكبير.

كانت الأخت "مارجريت" مثالًا مشرّفًا، وقدوة يُحتذى بها.

تأثّرت بها إيزابيلا، وأخذتْ تفكّر بجديّة في الالتحاق بالكنسية، وأنْ تهبَ نفسها لخدمة الرب.

كانت تعلم أنّ دانييل يحبّها بشدّة رغم أنّه لم يفصحْ لها يومًا عن هذا الحبّ، بل كان يرسله لها في صورة اهتمام بالغ لأمرها، وكان يظهر جليًّا في خوفِه عليها، وحرصِه على أن يراها في أتمّ الصّحة والعافية.

كان يتحجّج بالمجيء إلى بيتها رغم يقينه بتمام شفائها، ويمكثُ بجوارها لساعات يحدّثها عن أيّ شيء، يطيل فترة وجودِه بجوارها، حتّى أنّه حدّثها عن مرضاه، وعن أحوالهم، وأسمائهم، وعائلاتهم.

ولكنّها بدت حزينةً شاردة، وعينها بها ألفُ حديث، وحديثُ العين يفضح ما يستره القلب، فسألها: ما بكِ يا إيزابيلا؟!

صمتتْ وأدارتْ رأسَها إلى الجهة الأخرى، قال لها: سأذكّركِ بما اتّفقنا عليه سابقًا؛ أنْ نصبح أصدقاء، وأنْ تخبريني عَمَّا يحزنكِ حتّى أشاركَكِ؛ لأنّ الأصدقاء يتشاركون كلّ شيء، فلو لمْ تفصحي عن دخيلة نفسكِ فسأعتبرُ نفسي لست أهلًا لحمْل تلك الأمانة.

هَمَّ بالوقوف بعد أنْ طال سكوتها المريب، حملَ نفسه، وقبل أنْ يخطو من أمامها خطوةً أمسكت بيده، وقالت: أخشى اليومَ أنْ أفقدكَ للأبد يا دانييل. اقتربَ منها بعد أصيب برعدةٍ من نبراتها الحزينة، وعينه ترقبُ ثغرها الذي بَدَا أنّه سيفشي ما أضمرتْه عنه طيلةَ هذه الفترة، لهنيهة ساد المكانَ صمتٌ مطبق، كانت فيها واجمةً تظلّلها غمامة من الأسى التي أمطرتْ على وجنتيها بعض الدّمعات التي ترقرقت كحبّات اللؤلؤ، وقد انحدرت كالسيل تترى!

أخرج من جيبه منديلًا مُلوّنًا من القماش ليجفّف دموعها، فاقترب منها بعد أنْ جَثَا على ركبتيه أمامها، فقالت له: دانييل، أنتَ صديقي، وأقربُ النّاس إلى قلبي، وما سأقوله الآن عِدْني بأنّه لن يُغَيِّر من تلك الصّداقة شيئًا.

توجّس من حديثها، ولكنّه وعدها بما أرادت، وقلبُه تسارعت دقّاته، وعلتْ في صدره شهقاته وزفراته؛ فرحمته وقالت: سأهبُ نفسي لخدمة الرّب. ذُهل من مقالتها، ثمّ قام مشدوهًا: ماذا؟! هل هذا هو قراركِ؟!

عاد أدراجه بكلّ خيباته إلى مجلسه الأوّل بجوارها، وترقرقت الدّمعةُ في قلبه، وأطلّت الحيرة بكلّ رؤوسها أمام عينيه، تفتكُ بصبره وتحمله، فقال لها: لماذا تُصرّين على الهرب من الحياة ومَن فيها؟!

أنتِ لم تمنحي قلبكِ الفرصةَ ليرى النور، وكأنّك بُليتِ بالموت مرتين! شأنكِ شأنُ الضعفاء الذين استسلموا لليأس، ولَم يتكبّدوا عناءَ السّير في دروبِ الدنيا؛ ليصادفهم قدرهم الجميل الذي خُلق لهم.

في إحدى المقاعدِ الجانبية للكنيسة، أخذت إيزابيلا مقعدها التي اعتادتْ عليه، لاحظت وجودَها الأختُ "مارجريت" فعرفتها وأقبلتْ عليها، فأفضت لها بحديثِ روحها عندما فقدت خيوطَ أملها، لقد أفرغت الدنيا حسنها من أمام عينها؛ فراحت تقول: كأنّه انتزع مني ألف عام من الحبّ، وألف سنة من الشّقاء، ألا ترين أنّنا لا نستطيع جمع أسباب السّعادة في جملةٍ واحدة، ولكنْ بإمكاننا تذوّق السّعادة حدّ الهناء من نظرةٍ واحدة. ربّتت مارجريت على كتفها بحُنُوٍّ، وقالت لها: اصبري يا عزيزتي، أنتِ تستحقّين الأفضل، مازال قلبك ينبض بالأمل. حرّكت رأسها: لا أوافقكِ الرأي أختي الحكيمة، فمَن يعيرني صبرًا؟ جحيم كلماته التي لا يطفئها تربيتات الحروف الثّكلى وهي تراودني في شيء تقع عليه عيني، لقد كان لي عمرًا ولم أحْيَه، وكأنّه يمسك بقلبي بوعوده وعهوده؛ فأناملُ أحرفه لم تمسك طرفَ ناي حزين يوم أن نفخ في روعي معزوفةَ حبّه الأولى، لقد أشعل في هدوئي تنّورَ فكر، كانت صورتُه وحركاته وحديثُ نظراته حطبًا أبقى على وجوده كحريقٍ في عقلي وقلبي.

انحدرتْ من عينها دمعةُ ألم، فجذبتْها مارجريت إليها برفق، وراحتْ تلملم ما تناثرَ من آلامها، وما تنافر من خواطرها، دارَ بينهما حديثٌ طويل أفضى إلى إقناعها بالعُدول عن قرارها، على أنْ تمنح نفسها فرصة؛ ربّما استطاع دانييل أنْ ينسيها ما مرَّت به حزن وأسى قَضَيَا على بهجة قلبها، وقَتَلَا سعادتها بمقتل حبيبها برقان.

صارعتْ كلّ الأفكار، ولكنّها استجابت لنداء قلب دانييل الذي عشقها بكلّ كيانه؛ فَتَزَوَّجَا، ولكنّ هناك طيفًا لم يفارق قلبَها رغم إخلاصها لدانييل، كأنّ حبّها الأوّل حُفر في أنفاسها!

بعدَ سنواتٍ عِدّة رُزقت إيزابيلا بمولودٍ جميل، ولم تتردّد في أنْ تسمّيه "برقان"، كان هو كلّ سلوتها وأنسِها.



خاتمـــة

وبينما هي تداعبُ ولدَها في حديقةِ بيتها ذاتَ يوم، إذْ بقلادتها تتوهّج ويخرج منها ضوءٌ يحادثها قائلًا: لماذا نسيتِ العهدَ يا إيزابيلا؟!

همستْ بصوتٍ خافت لا يسمعها أحدٌ سواه: لم أنسَ، لقد أبقيتُ عليك نبضًا أحيا به إلى آخرِ يوم في حياتي، وإنْ كنتَ أحبَّ الأشياء إليّ فالفضيلةُ تجعل بين وبينك حواجزَ عدّة الآن، إنّني رأيت الحبّ يخطو فوق رؤوس الأزمات وكأنّه الجندي الوحيد الذي بنجاته هزم البؤسُ والشقاء في نفوس الفقراءِ والمتْعَبين.

لا تتعجّب يا عزيزي! فمنذ أنِ انتزعت أجنحتي على يدِ الجبابرة وأنا أتعلّم التّحليق عاليًا بجناحي من الحكمة والتّعقل، فقبل أنْ يرتطم قلبي بألم فقْدك للمرّة الثانية كنت أصرفُ نفسي عن الحياة صرفًا كمَن دبّ الموتُ في قلبه؛ لأنّ بقاءك بجواري كان يعني لي الحياة. ولم أكنْ أدرك أنّ الأحياء هُم الذين يحيا بهِم القلب، حتّى وإن توارت خلف المغيب أجسامُهم، فليس كلّ مَن تراه ويراك ويبادلُك أطرافَ الحديث حتّى وإن كان مملًّا متكرّرًا يحبّك حقًّا؛ سيحبّك مَن لا يرى فيكَ صورة مماثلة من أحد، هذا الذي يشعرُك بتفرّدك وتميّزك، مَن تخبرك أفعاله أنّك أصبحت جزءًا من قلبه وكِيانه؛ فيسكن بسكونِك ويفرحُ بفرحك ويسعدُ بابتسامتك، ليس عدلًا أنْ تحيا

بأحدهم على سبيل الخيال، وأحدُهم يحيا بك على سبيل الحقيقة! تلك قسوةٌ لا أتقبّلها، فهي تسلبني وفائي بعهدي الحقيقيّ، سأتخلّص منها الآن.

بخطواتٍ ثابتة تقترب من حفرةٍ عميقة بالقرب من جذع الشّجرة المجاورة لها، ثمّ تنزعُ القلادة من عنقها، وها هي تمسكُها بكلتا يديها تقبّلها، ومن ثمّ تلقي بها إلى داخلِ الحفرة، كانت تهيل فوقها التربة وهي تقول: اليوم أنا بخير، الآن أعودُ للحياة. تنهض وهي تُقبّل صغيرها وتحتضنه بين ذراعيها، ولسانُ حالها ينطق بأسْمى آياتِ الفضيلة والتضحية.

صبيحةَ اليوم التّالي، شوهِدَ كلّ من إيزابيلا وفيولا وهُما توزّعان الفاكهة على الفقراء في أرجاء بلدة مُرسية، وكان هذا بدايةَ عهدٍ جديدٍ في حياة كلّ منهما.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة


دار البشير للثقافة والعلوم